# الفصل الثاني

## الموقف السياسي (الرسمي)

- **المبحث الأول: موقف اليمن قبيل الحكم الأيوبي**

أولاً: موقف القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي

ثانيًا: تداعيات الأوضاع في اليمن وانعكاساتها على أمن المنطقة

أ. دولة بني مهدي ونشاطها العسكري
ب. القرصنة البحرية وتهديدها للملاحة في المنطقة
ج. محاولات الصليبيين النفاذ إلى البحر الأحمر والحجاز

- **المبحث الثاني: موقف اليمن السياسي تحت الإدارة الأيوبية**

أولاً: أسباب اهتمام الأيوبيين باليمن .

أ - روايات المؤرخين حول أسباب حملة توران شاه على اليمن
ب - استقراء الأسباب التي جعلت صلاح الدين يعمل على ضم اليمن إلى سلطانه.

ثانيًا: النتائج السياسية لتولي الأيوبيين زمام الإدارة في اليمن

- **المبحث الثالث: موقف اليمن السياسي خلال الحكم الرسولي**

أولاً: علاقة بني رسول السياسية بمصر وبغداد .

ثانيًا: المراسلات.

ثالثًا: دور اليمن في عزل الحبشة عن القوى الصليبية.

## الموقف السياسي (الرسمي)

مع مستهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تمكن الصليبيون (الفرنج) من تأسيس مملكة القدس اللاتينية، وتوسيع نفوذها في ظل الفرقة والانقسام الذي تعيشه بلاد الإسلام، والخلافات السياسية والصراع العسكري اللذين استحوذا على العلاقات بين المسلمين في ظل خلافتين متصارعتين على النفوذ، وعدد من الكيانات السياسية المتأرجحة الولاء تبعًا لمصالحها السياسية والعسكرية.

وقد جر انقسام بلاد الإسلام وتفرقها على الأمة من الويلات والحروب ما كانت في غنىً عنه في ظل الوجود الصليبي في المنطقة، فقد نتج عن الصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية عدم وجود قيادة موحدة تتولى مسؤولية الدفاع عن الأمة الإسلامية ضد العدوان الصليبي، وتتوحد في ظلها مختلف القوى السياسية والإمكانات الاقتصادية والعسكرية في بلاد الإسلام.

ونتيجةً لذلك فإن جهود الأقاليم الإسلامية تفرقت تبعًا لنوع الولاء الذي تدين به تلك الأقاليم، فقد كانت دولة السلاجقة والأتابكيات التابعة لها غارقة في خضم حروب بين السلاجقة أنفسهم، وقد بلغت شدة تلك الصراعات السياسية والنزاعات المسلحة حدًّا باءت معه الجهود التي بذلها سلاطين السلاجقة وقادة جيوشهم في سبيل دحر العدو الصليبي وتحرير الأراضي التي احتلوها من ديار الإسلام؛ باءت بالفشل - رغم النجاح النسبي الذي حققته بعض تلك الحملات - وذلك بسبب عمق العداوات بين السلاجقة، ومن ثم الشرخ الذي أحدثته في سلسلة الأتابكيات

والإمارات التابعة لهم[١].

وأما بالنسبة إلى الدولة الفاطمية فإن الجهود التي بذلها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي لاسترداد بيت المقدس والدفاع عن الموانئ الشامية؛ كانت تفتقر إلى أقل قدر من الانضباط العسكري على الرغم من ضخامة استعداداتها وذلك بسبب توزع ولاءات الجند بين عدد من القيادات في الدولة الفاطمية، وهو ما ظهر جليًا في الخلاف الذي نشب بين أمير الأسطول وأمير الجيش في حملة سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م) الذي تسبب في فشل تلك الحملة وانتهائها بكارثة[٢]، فضلا عن أن تلكؤ السلطات الفاطمية في إرسال الإمدادات العسكرية والمؤن إلى المدن الساحلية المحاصرة - والتي كانت نداءات استغاثتها لا تنقطع عن القاهرة - تسبب في سقوطها أخيرًا في يد الصليبيين[٣].

ولم تكن الصراعات والعداوات الناتجة عنها لتسمح بنجاح أي عمل عسكري فاعل ضد الصليبيين، سواء المحاولات التي قامت بها الخلافة العباسية - متمثلة في دولة السلاجقة - وكذلك الخلافة الفاطمية كل على حدة، بل حتى التحالف الذي تم بين أتابكية دمشق بقيادة الأتابك طغتكين -

(١) محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط١- ١٩٩٩م- ٢٠٠٠م، ص١٥٠-١٥١، ١٥٥؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص٢٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص١٤٩- ١٥٠.

(٢) رنسيمان: المرجع نفسه، ج٢/ قسم١/ ص١٢٤-١٣٠؛ طقوش: تاريخ الفاطميين، ص٤٤٥- ٤٤٦؛ عاشور: المرجع نفسه، ج١/ ص٢٣٤- ٢٣٦.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١٦٨- ١٦٩؛ طقوش: المرجع نفسه، ص٤٤٧، ٤٥٤.

التي تمثل دولة السلاجقة - وبين الدولة الفاطمية ممثلة في أمير جيوشها الأفضل بن بدر الجمالي انتهى بهزيمة قوات التحالف سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م)[١].

وكانت تجمعات الحشاشين (الباطنية) في المنطقة تراقب عن كثب تحركات القوى الإسلامية، ويدهم تطال قادة الجهاد الإسلامي وسلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين والفاطميين لكي لا يشكلوا خطرًا على نفوذهم في المنطقة، الذي اكتسبوه من خلال نشرهم الرعب بين المسلمين والصليبيين على السواء عبر سلاح الاغتيال الرهيب، الذي أجادوه واستخدموه بفاعلية في تنفيذ مآربهم للتخلص من خصومهم السياسيين، أو القادة الذين قد يشكلون خطرًا عليهم، بل حتى العلماء لم يسلموا منهم، ولا يتسع المقام لتعداد جرائم الاغتيال التي قاموا بها ضد رموز الأمة وقادتها[٢].

ولم تكن جرائمهم مصدر رعب وإرهاب في المنطقة فقط بل تجاوز خطرهم إلى وأد كل محاولة جادة في سبيل التصدي للصليبيين وطردهم، وذلك عبر استهداف أبرز قادة الجهاد الإسلامي، مما أخر مسيرة الجهاد عقودًا بسبب الاضطرابات التي سببتها طعنات خناجرهم في ظهر الأمة، فضلا عن تحالفهم الفاضح مع الصليبيين ضد المسلمين في كثير من

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٦/ ص٤٥١- ٤٥٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٢٣٩- ٢٤٠؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص١٤٤- ١٤٧.

(٢) الصلابي (علي محمد): دولة السلاجقة، دار المعرفة - بيروت، ط١- ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٦٥٢- ٦٥٦؛ عوض: الحروب الصليبية، ص١٥٥- ١٥٦ .

الأوقات، مما جعل عددًا من العلماء يقدِّمون قتالهم على قتال الصليبيين بسبب مكرهم وكيدهم للأمة[١].

وهكذا صار واضحًا استحالة التصدي للعدو الصليبي الذي تقف من ورائه أوروبا كلها في ظل الأوضاع السياسية المتردية التي تعيشها الأمة والمتجسدة في الآتي:

أ/ الانقسام والتمزق السياسي الذي تعيشه الأمة في ظل الخلافة العباسية المستضعفة من قبل سلاطين السلاجقة وقادتهم، التي ظلت تكافح في سبيل استعادة مكانتها وزعامتها الفعلية على ديارالإسلام، ولم يملكوا لمواجهة الغزو الصليبي إلا بذل الوعود بالنصرة وندب الفقهاء ليحثوا الأمراء المتصارعين الذين لا يدينون إلا بالولاء الاسمي لبغداد بأن يهبوا للذود عن ديار الإسلام[٢].

وكذلك الخلافة الفاطمية التي لم تكن بأحسن حالاً من الخلافة العباسية بسبب تسلط وزرائهم عليهم، الذين كانوا أشد تعصبًا ضد السنة من الفاطميين أنفسهم، كما أن الصراع السياسي بين الوزراء، والفوضى الضاربة أطنابها وسط الجيش، فضلا عن انعدام الانضباط العسكري؛ كل ذلك أدى إلى عدم تمكن الفاطميين من التصدي بفاعلية وقوة للصليبيين، على الرغم من الموارد الهائلة التي وفرتها لهم مصر وتجارة البحر الأحمر.

---

(١) ابن تيمية (شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني): مجموعة الفتاوى، تخريج: عامر الجزار وأنور الباز، مكتبة العبيكان - الرياض، ط١- ١٩٩٧م، ج٢٦/ ص٢٦٢- ٢٦٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٦/ ٣٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ١٦٩- ١٧٠.

ب/ الخلافات السياسية العميقة بين أمراء السلاجقة في العراق والشام حتى صار الشك والتآمر هما السمة المسيطرة على العلاقات فيما بينهم، مما جعل التنسيق مستحيلاً للعمل معًا ضد العدو الصليبي، بل إن بعضهم كان يكيد للآخر خلال حربه للصليبيين(١).

ج/ الانفلات الأمني الناجم عن الفوضى السياسية، مما جعل عناصر مخربة مثل الحشاشين تسيطر على عدد من القلاع والحصون، مؤسسين شبكة إجرامية غطت المنطقة كلها وقدمت خدماتها لمن يدفع لها حتى ولو كان الصليبيون أنفسهم، فشكلت بذلك عائقًا أمام مسيرة الجهاد ضد العدو الصليبي، وتحتم بذلك على أية قيادة جادة في جهاد العدو ومنازلته أن تتصدى لهم وتقضي على معاقلهم والجيوب التابعة لهم ومراكز تمويلهم.

يتبين مما سبق لنا مدى ضراوة المعركة السياسية التي يجب على أية قيادة إسلامية خوضها في سبيل توحيد المسلمين تحت راية خلافة واحدة، ومن ثم تستمد شرعيتها من الدعم الذي تتلقاه منها فتصبح جديرة بالتفاف المسلمين حولها في جبهة واحدة، تتوحد فيها جميع طاقات الأمة وإمكاناتها بعيدًا عن الخلافات السياسية والمذهبية التي عصفت بالأمة الإسلامية واستنزفت إمكاناتها وثرواتها.

وسنتناول فيما يلي الدور السياسي الذي لعبته اليمن - سلبًا أو إيجابًا - في الصراع السياسي الذي عاشته الأمة، وأهميتها بالنسبة لاستراتيجية الجبهة الإسلامية الموحدة التي اتبعها الزنكيون والأيوبيون من بعدهم.

---

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، ص٦٢٩؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ج٢/ قسم١/ ص١٨٤، ٣٩٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٣٥٤- ٣٥٥.

## المبحث الأول

### موقف اليمن قبيل الحكم الأيوبي

فيما يلي سنتحدث عن طبيعة موقف اليمنيين السياسي من الخطر الصليبي الذي واجهته الأمة الإسلامية، وذلك من خلال محاولة استقراء الأوضاع السياسية في اليمن منذ أن بدأ الغزو الصليبي لديار الإسلام إلى سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) حين وصلت حملة توران شاه بن أيوب إلى اليمن.

**أولاً: موقف القوى السياسية في اليمن قبيل الحكم الأيوبي.**

**١- الزيدية:**

لقد ظلت الإمامة الزيدية في اليمن قائمة بذاتها منفصلة عن أئمة طبرستان، باستثناء بعض من دعوا لأنفسهم بالإمامة ولم يحالفهم الحظ في طبرستان وبلاد الديلم فقصدوا اليمن داعين لأنفسهم مثل الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي[(١)]، إلا أنه مع مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حصل تطور مهم في العلاقة بين الزيدية في اليمن وخارجها، وذلك أنه في سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٩م) قام أبو طالب يحيى بن أحمد بن الحسين بن

(١) الإمام أبو الفتح الناصر بن الحسين بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبدالله المعروف بالديلمي، ولد ونشأ بقرى الديلم من بلاد إيران، وأقام دعوته هناك، ولكنه لم يوفق، فقدم إلى صعدة سنة (٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م)، فانتشرت دعوته، والتف حوله كثير من الناس، ولكنه اصطدم بقوة الصليحيين الصاعدة فهزم وقتل سنة (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)؛ انظر: يحي بن الحسين (الإمام يحيى بن الحسين الهاروني): الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، صورة من المخطوط على قرص صلب من مكتبة الدكنور رعد الموسوي، ورقة (٣٨ أ)؛ الحداد: التاريخ، مج٢/ ص١٥٤- ١٥٦.

الإمام المؤيد داعيًا لنفسه بالإمامة في جيلان وبلاد الجبل واشتهر بالهاروني، وقد قام بخطوة جريئة إذ أرسل أحد أتباعه إلى اليمن داعيًا له وذلك في سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م)، وقد لقيت دعوته ترحيبًا من كثير من رجال الزيدية ووجهائها في اليمن، وعهد ذلك الداعي إلى أحد ذرية الهادي ويدعى المحسن بن الحسن بن عبدالله بن المختار بن الناصر القيام بأمر الدعوة له في اليمن، إلا أنه قتل بصعدة في العام نفسه كما بينا في الفصل السابق.

ولم يكن هذا التطور في علاقة الزيدية في داخل اليمن وخارجها، وذلك النجاح الذي أحرزته دعوة الإمام أبو طالب نتيجة للفراغ السياسي الذي عاشته الزيدية في اليمن خلال تلك المدة فقط، ولكن إذا تأملنا في الأحداث التي عاشتها بلاد الإسلام آنذاك من تزايد خطر الباطنية في وقت تواجه فيه الأمة الغزو الصليبي، فكان الحشاشون في خراسان وبلاد فارس ومراكزهم الأمامية في بلاد الشام كلها شكلت معوقات خطيرة في تفعيل المقاومة الإسلامية ضد الغزو الصليبي، بل صار قتال الباطنية مقدمًا على قتال الصليبيين عند كثير من العلماء[١].

وعلى الرغم من أن دعوة الإمام أبي طالب قد قامت بعيدًا عن مواطن الجهاد ضد الصليبيين، فإنه قام بعمل في غاية الأهمية بالنسبة لقضية الجهاد الإسلامي، وذلك أنه منذ أن دعا لنفسه انتهج سياسة محاربة الباطنية، فتذكر المصادر أن أكثر حروبه ضد الباطنية، فقتل في يوم واحد (١٤٠٠) قتيل، وصلب منهم (٣٠٠) أحياء[٢]، وغزا في البحر إلى قرية لهم، فأخذها

(١) ابن تيمية: الفتاوى، ج٢٦/ ص٢٦٤.
(٢) المحلي: الحدائق الوردية، ج٢/ ص١٠٩؛ يحيى بن الحسين: الإفادة، ورقة (٣٨ أ، ب).

بالحصار حتى صالحه كبارهم، وافتتح من قلاعهم ثماني وثلاثين قلعة[١].

لقد أسهمت جهود الإمام أبي طالب وحروبه ضد الباطنية بشكل غير مباشر في تخفيف الضغط على السلاجقة، الذين شغلوا منذ وفاة السلطان ملكشاه بالصراع فيما بينهم من جهة وحروبهم ضد الباطنية من جهة أخرى، لا سيما في مدة الاستقرار النسبي التي مروا بها مثل حكم السلطان محمد بن ملكشاه[٢]، الذي تفرغ بكليته لحرب الباطنية حتى قاد بنفسه حملة ضد قلعة أصبهان التابعة لهم، التي تشرف على حاضرة ملكه وذلك سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٧م)[٣].

ولم تكن الحرب ضد الباطنية بالأمر الهين حتى على دولة السلاجقة على الرغم من قوتها العسكرية الضاربة، فكيف بإمام زيدي يحكم مقاطعة متواضعة، تمكن من توجيه ضربات موجعة لهم منتزعًا منهم كثيرًا من القلاع والحصون[٤]، وكان أول أئمة تلك الجبهة تصل دعوته إلى اليمن وتلقى ذلك

(١) المحلي: المصدر السابق، ج٢/ ص١٠٩؛ يحيى بن الحسين: المصدر نفسه، حاشية ورقة (٣٨ ب).

(٢) السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م - ٥١١هـ/ ١١١٧م): لما مات ملكشاه اقتسم إخوته وأبناؤه الأقاليم، فكان بركياروق هو المشار إليه، ثم قدم محمد وسنجر إلى بغداد، فعقد الخليفة المستظهر لمحمد بالسلطنة، وجرت بينه وبين بركياروق حروب كثيرة، ثم عظم شأن محمد، وتفرد بالسلطنة، ودانت له البلاد، فكان فحل آل سلجوق، حارب الإسماعيلية، وأباد منهم، وأخذ منهم قلعة أصبهان، وقتل ابن غطاش ملكهم؛ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩/ ص٥٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٦/ ص٤٧٣- ٤٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٨٠.

(٤) المحلي: المصدر السابق، ج٢/ ص١٠٩؛ يحيى بن الحسين: الإفادة، حاشية ورقة (٣٨ب).

القبول بفضل جهوده في خدمة الإسلام معرضًا نفسه لخطر الاغتيال من الباطنية، مما جعله يحترز منهم طوال حياته وحتى بعد مماته إذ أوصى أن لا يُعَلّم قبره " . . . مخافة إن تغلب الملاحدة على تلك الجهة فيحرقونه . . . "[١].

وكان نتيجة ذلك أن تفرغ السلاجقة بعض الشيء لمقارعة العدو الصليبي، ففي سنة (٥٠٣هـ/ ١١١٠م) - أي بعد عام من دعوة الإمام أبي طالب - كلف السلطان محمد الأمير مودود بن التونتكين[٢] صاحب الموصل بتشكيل تحالف إسلامي يضم أمراء أرمينية، وسلاجقة الروم، وماردين، ودمشق، لمقارعة الصليبيين، حيث تمكن الأمير ممدود من توجيه ضربات موجعة للصليبيين وتحقيق عدد من الانتصارات التي أعادت إلى الأمة ثقتها بنفسها وقدرتها على مقارعة الصليبيين، بعد عقد كامل تشاغل فيه السلاطين السلاجقة وأمراؤهم بصراعاتهم فيما بينهم عن منازلة العدو أو مواجهة خطر الباطنية، ما عدا بعض الحملات الصغيرة على بعض الإمارات الصليبية، التي لم تحقق تقدمًا ملموسًا بسبب عدم تعاون الأمراء السلاجقة فيما بينهم[٣].

وتعد الحملة الكبرى التي قادها الأمير مودود عند كثير من المؤرخين

---

(١) يحيى بن الحسين: الإفادة، حاشية ورقة (٣٨ب).

(٢) الأمير شرف الدولة مودود بن التونتكين (٥٠١هـ/ ١١٠٨م - ٥٠٧/ ١١١٣م): ولي إمرة الموصل، وكلفه السلطان محمد بن ملكشاه بقيادة تحالف أمراء السلاجقة في مواجهة الصليبيين، وقد تمكن خلال سنوات حكمه المعدودة من إنزال هزائم موجعة بالصليبيين، أعادت للأمة ثقتها بنفسها وقدرتها على مقارعة الصليبيين، استشهد غيلة في أثناء خروجه من جامع دمشق بعد صلاة الجمعة، الصلابي: دولة السلاجقة، ص٦٢٤- ٦٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٦/ ص٥٠٨، ٥١٢- ٥١٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٩٠.

فاتحة مسيرة الجهاد الحقيقي ضد العدو الصليبي، التي تطورت بدفع العدو إلى وضع الدفاع في عهد الزنكيين، وكانت أول محاولة جادة على طريق الوحدة الإسلامية[١].

ومع ذلك فإنه على الرغم من تأييد زيدية اليمن السياسي للإمام أبي طالب فإن ذلك الوضع تغير إثر مقتل صاحب الدعوة في اليمن الأمير المحسن[٢]، مما أدى إلى انشغال الزيدية بالصراع ضد القوى المناوئة لهم، وحتى الإمام أحمد بن سليمان الذي كان أبرز أئمة الزيدية في تلك الحقبة لم يظهر موقفًا سياسيًا يتعلق بالخطر الصليبي الذي تواجهه الأمة، إلا أنه أخذ في تفعيل الحرب ضد الفرق المناوئة له ناعتًا إياهم بالباطنية والملاحدة والكفرة، لا سيما قبيلة يام الإسماعيلية وتجمعات المطرفية التي كان موقف الإمام أحمد بن سليمان أكثر حدة ضدها من مواقف عدد من الأئمة في القرن الماضي فتفرغ لقتالهم عادًّا إياه جهادًا[٣].

وهكذا فإنه لم يكن للإمامة الزيدية في اليمن موقف سياسي مباشر وصريح من الجهاد ضد الصليبيين، عدا دعمهم وتأييدهم لدعوة الإمام أبي طالب، والدليل على ذلك اتفاق الزيدية على الأخذ بثأر الداعي له باليمن الأمير المحسن من قتلته[٤]، فكانت دعوته فاتحة لمرحلة جديدة من

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، ص٦٣٤ - ٦٣٥؛ عوض: الحروب الصليبية، ص١٥٦.
(٢) وذلك بسبب قتله باطنيًا كان ضيفًا عند الحدادين بصعدة، ويبدو أن ذلك كان اتباعًا منه لسياسة إمامه في القضاء على الباطنية وتعقبهم.
(٣) المحلي: الحدائق الوردية، ج٢/ ص١٢٨- ١٣٢؛ الوجيه: أعلام المؤلفين الزيدية، ص ١٠٨٨.
(٤) المحلي: المصدر نفسه، ج٢/ ص١٠٩؛ يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٢٨٧- ٢٨٨؛ الكبسي: اللطائف، ص٨٥.

العلاقات بين زيدية اليمن وزيدية طبرستان وبلاد الديلم التي تجلت في عهد الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة.

**٢- الإسماعيلية:**

كانت الخلافة الفاطمية في مصر تعتمد على إسماعيلية اليمن - وتمثلهم الدولة الصليحية والحاتمية والزريعية - في بسط سيادتهم على الحدود الجنوبية لديار الإسلام، وإحكام قبضتها على البحر الأحمر سياسيًا واقتصاديًا، وكذلك مد نفوذهم على الحجاز، مما كان له أكبر الأثر في رجحان الكفة السياسية للفاطميين على حساب العباسيين خلال القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، إلا أنه بحلول القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) أخذت الخلافة الفاطمية تسير نحو الانهيار بسبب الأزمات الاقتصادية والصراع بين الوزراء وقادة الجند التي لازمتها كالداء العضال، مما جعلها عاجزة عن الدفاع عن ممتلكاتها في فلسطين والسواحل الشامية طوال النصف الأول من ذلك القرن، على الرغم من الجهود المبذولة من قبل بعض وزرائهم كالأفضل الجمالي الذي لم يتوان عن تجريد الحملات وإعداد الأساطيل للدفاع عن ممتلكات الفاطميين ومحاولة استرداد ما خسروه، ومنها أن الخليفة الحافظ الفاطمي كان يرسل العساكر إلى عسقلان - القاعدة الأمامية لمصر - كل ستة أشهر[١]، إلا أن الاضطرابات والدسائس شغلت رجال الدولة عن التفرغ لصد ذلك الخطر الداهم حتى سقطت عسقلان فصارت مصر نفسها هي الهدف التالي للصليبيين.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٢٣٨.

أما بالنسبة إلى أتباعهم في اليمن فقد استهل ذلك القرن وعلى رأس الدولة الصليحية امرأة قابضة على زمام الحكم بقوة لتحافظ على كيان الدولة المتهالك، مستعينة في ذلك بعدد من الرجال لإدارة دولتها والذود عن ملكها، وقد انعكس ذلك الوضع على العلاقة بين الطرفين حتى إن الهدية المعتاد إرسالها إلى الخليفة الفاطمي نهبتها بعض القبائل سنة (٥٠٤هـ/ ١١١١م)[١].

وفيما يتعلق بموقف إسماعيلية اليمن من الجهاد الذي تخوضه الجيوش الفاطمية التي كانت آخر حملاتها البرية على الصليبيين سنة (٥٠٣هـ/ ١١١٠م)، في محاولة للدفاع عما تبقى لهم من ممتلكات في الساحل الشامي؛ فإنه لم يتوافر فيما بين أيدينا من مصادر أي نص يذكر مراسلة تمت بين الخلافة الفاطمية ودعاتهم في اليمن بهذا الشأن، وهو أمر يثير الاستغراب في ظل الدعم الذي يمكن أن تقدمه لهم اليمن، ويمكن عدُّ ذلك انعكاسًا لحالة التخاذل التي آلت إليها الخلافة الفاطمية ووزراؤها عن منازلة العدو الصليبي بصورة جدية، فانشغلوا عن الجهاد بالدسائس والكيد بعضهم لبعض وإهدار موارد البلاد لأجل مصالحهم الشخصية، على الرغم من تربص العدو بهم، وبهذا الصدد يقول أبو المحاسن عن الخليفة الآمر بأحكام الله: "... إنه كان يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه... ولم ينهض لقتال الفرنج ألبتة، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرًا فهو كلا شيء..."[٢].

(١) عمارة: المفيد، ص٢٣٠.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥/ ص١٧٦.

ويتضح مما سبق أنه لم يكن للقوى الإسماعيلية في اليمن دور سياسي فاعل في دعم مسيرة الجهاد ضد العدو الصليبي، ولو عن طريق دعم الخلافة الفاطمية المهددة هي الأخرى بالاجتياح من قبل الصليبيين، بل إن تبعيتهم السياسية والمذهبية العمياء للفاطميين جعلتهم عقبة في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية، فوجب على صلاح الدين القضاء على كياناتهم السياسية في اليمن، التي شكلت آخر الجيوب للفاطميين في المنطقة.

**٣- النجاحيون:**

تعد الدولة النجاحية آخر معاقل الخلافة العباسية في اليمن خلال تلك الحقبة إلى أن قدم الأيوبيون سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٥م)، وكان نفوذ النجاحيين قد تقلص كثيرًا بسبب حروبهم ضد الصليحيين، والمشاكل الداخلية لدولتهم من الصراع بين الأمراء والوزراء، مما أضر بقوتهم العسكرية، ولم يمكنهم من توحيد اليمن تحت رايتهم وإعادة سلطان الخلافة العباسية - كخطوة من جهتهم نحو الوحدة الإسلامية - الأمر الذي لو تم لوفر كثيرًا من الجهد والوقت الذي استغرقه ضم اليمن إلى الجبهة الإسلامية، على الرغم من أنه ليس من المتوقع أن يسلم النجاحيون بالطاعة للزنكيين أو الأيوبيين، إلا أنه من المؤكد أن ولاء الجانبين للخلافة العباسية هو في حد ذاته إنجاز سياسي كبير يصب في صالح الأمة الإسلامية، فكيف لو تم التنسيق معًا للعمل سويًا تحت راية الخلافة العباسية ضد الخطر الصليبي.

ولكن مشاكل النجاحيين كانت أكبر من دولتهم، إذ لم يكتب لهم الإسهام بشكل فاعل في دعم الجهود السياسية لتوحيد الأمة تحت راية الخلافة العباسية، فضلا عن أن موارد دولتهم التي استهلكتها حروبهم لم

تكن تسمح بأن يقوموا بأي نشاط ملموس في جنوب البحر الأحمر، عدا عملهم على تأمين رحلة الحج إلى مكة من اليمن برًا وبحرًا من أخطار البحر كالقراصنة وقطاع الطرق في البر، وذلك على يد الملكة الحرة أم فاتك أمير زبيد، فيقول عمارة: " . . . وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن برًا وبحرًا وبجميع خفارات الطريق والأدلاء ومقدمي العربان والأشراف. . . فربما حج معها أهل اليمن في (٤٠٠٠) بعير أو (٥٠٠٠)، ويسافر الرجل منهم بحريمه وأولاده والمواشي التي يذبحون منها ويحلبون درها ومعهم المطابخ والأسرة وجميع ما يحتاجونه وكأنهم خارجون في نزهة. . ."[(١)]، وهو أمر له أهميته في زمن ساد فيه الخوف بسبب الفتن والحروب حتى إن ركب الحاج العراقي نفسه كان ينقطع في بعض السنين بسبب قطاع الطرق والفتن بين أمير الركب وأشراف مكة[(٢)]، وكذلك الحال بالنسبة للحجاج المصريين الذين فرض عليهم أشراف مكة الإتاوات الباهظة التي أبطلها صلاح الدين الأيوبي فيما بعد[(٣)]. إن ما قامت به الملكة الحرة - رغم عدم صلته بالجهاد ضد الصليبيين - أسهم بشكل غير مباشر في تأكيد سلطان الخلافة العباسية على مكة المشرفة، وكذلك تأمين الملاحة في

(١) عمارة (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي اليمني): النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، تصحيح: هرتيوغ درنبرغ، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط٢- ١٩٩١م، ص٢٤- ٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل: مج٧/ ص٥١، ٨٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٣٦، ٢٤٤.

(٣) المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقريزية"، دار صادر - بيروت، د.ط - د.ت، ج٢/ ص٢٣٣.

جنوب البحر الأحمر ضد خطر القراصنة[١]، لا سيما في ظل وجود قاعدة للصليبيين تطل على البحر الأحمر هي أيلة.

وعمومًا فإنه لم يُقَيض للنجاحيين أن تستمر دولتهم إلى قدوم الأيوبيين ليجيبوا عن سؤالنا بشأن الدور الذي يمكن أن يلعبوه في دعم مسيرة الجهاد ضد الصليبيين، إذ سرعان ما أنهى علي بن مهدي دولتهم سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) محدثًا تغيرًا في موازين القوى كانت له انعكاساته على أمن المنطقة.

**ثانيًا: تداعيات الأوضاع في اليمن وانعكاساتها على أمن المنطقة.**

**١- دولة بني مهدي ونشاطها العسكري:**

في سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) تمكن علي بن مهدي الرعيني من القضاء على الدولة النجاحية، ودخل عاصمتهم زبيد بعد سنوات من الحصار[٢]، وعلى الرغم من أنه توفي بعد أقل من ثلاثة أشهر من دخوله زبيد فإن القوة العسكرية التي أنشأها والتي تمتعت بالانضباط وبنزعة عسكرية عالية أدارها عبر عرف عسكري صارم؛ كانت لا تزال متعطشة للحرب والغزو، فجاءت العمليات العسكرية التي قادها أبناؤه من بعده تلبية للخطة التوسعية لدى أبيهم، واستجابة للنزعة العسكرية لرجالهم، وقد اتصفت غزواتهم بالعنف وانعدام الرحمة والإنسانية، فلم يسلم منهم حتى كبار السن والنساء والأطفال[٣]، ومرجع ذلك

(١) عمارة: النكت، ص٢٦.
(٢) عمارة: المفيد، ص١٨٦؛ الخزرجي: العسجد، ص١٣٠- ١٣١، ١٣٤- ١٣٥.
(٣) الخزرجي: المصدر نفسه، ص١٣٦- ١٣٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٥٠- ٢٦٠.

إلى الفكر الخارجي الذي زرعه علي بن مهدي في أبنائه ورجاله حتى إنه كان يأمر من أراد الالتحاق به أن يقتل أحدًا من أهله برهانًا على صدق موالاته لعلي بن مهدي وترسيخًا لمبدأ الطاعة العمياء[١]، وكان هذا غطاء لتنفيذ مآربه وأطماعه التوسعية التي لم تكن لتتوقف عند إمارة صغيرة تضم تهامة، بل كان يطمع إلى أبعد من ذلك وهو ضم اليمن كله تحت سلطانه، فيعلن نفسه خليفة وإمامًا على اليمن كله، يقول أحد شعراء بني مهدي[٢]:

فاليوم نجنح للخليفة بعده بالقائمين الهاديين وزهره
سبطيه قطبيه اللذين إليهما شرف الخلافة والإمامة ينتهي

إن الأطماع التوسعية لبني مهدي، وطموحهم السياسي غير المحدود، فضلا عن القوة العسكرية التي يملكونها؛ شكلت زلزالاً ضرب اليمن، ووصلت هزاته الارتدادية إلى العراق والشام ومصر، فشن بنو مهدي حربًا على من خالف اعتقادهم وسياستهم، فاضطهدوا العلماء والفقهاء، واستحلوا دماءهم حتى اضطروهم إلى الفرار منهم[٣]، وقام مهدي بن علي بن مهدي بغزو المناطق المجاورة مثل لحج التي غزاها مرتين في (٥٥٦هـ/ ١١٦١م) و(٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) قتل فيها كثيرًا من الناس، وغزا مدينة الجَند، وارتكب مذبحة في أهلها، وأحرق مسجدها على من احتمى به، وألقى بالجثث في بئر المسجد[٤].

---

(١) عمارة: المفيد، ص١٩٠- ١٩١.
(٢) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٧٣.
(٣) ابن سمرة (عمر بن علي بن سمرة الجعدي): طبقات فقهاء اليمن، تح: فؤاد سيد، دار القلم - بيروت، د.ط - د.ت، ص١٧٧- ١٧٩.
(٤) الخزرجي: العسجد، ص١٣٧؛ يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٣١٥.

وكذلك المذبحة التي ارتكبها أخوه عبد النبي إذ أحرق أبين مرتين في سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م) و(٥٦١هـ/ ١١٦٦م)، وغارته على المخلاف السليماني حيث قتل كثيرًا من أهله ولا سيما الأشراف، وعلى رأسهم الشريف وهاس بن غانم بن يحيى السليماني[١].

ومن المؤكد أن من هذه المذابح والفظائع التي ارتكبها بنو مهدي في اليمن ما بلغ مسامع الخلافة العباسية، والسلطان نور الدين محمود ونائبه على مصر صلاح الدين الأيوبي، لا سيما أن هناك رواية تقول إن الشريف قاسم بن غانم بن يحيى السليماني استنجد بالفعل بصلاح الدين على عبد النبي بن علي بن مهدي قاتل أخيه وهاس[٢]. وعلى الرغم مما يشوب منطقية هذه الرواية كون الشريف وهاس قتل سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٦م) قبل دخول شيركوه وابن أخيه صلاح الدين مصر[٣]؛ فإن الكتب المتبادلة بين نور الدين ونائبه صلاح الدين من جهة وبين الخليفة العباسي المستضيء بالله من الجهة الأخرى؛ تذكر صراحةً أن القضاء على بني مهدي في زبيد وإقامة الخطبة للخليفة العباسي كان واحدًا من أهم أهداف حملة اليمن[٤].

عمومًا فإن بني مهدي شكلوا تهديدًا مباشرًا على أمن المنطقة، لا سيما أن خطرهم وصل إلى الحجاز، وهددوا الحرمين، وما أشبه الفظائع التي

(١) ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٦٠. (٢) الخزرجي: العسجد، ص١٤٧-١٤٨.
(٣) محمد عبدالعال أحمد: الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية، د.ط - ١٩٨٠م، ص٧٦- ٧٧.
(٤) أبو شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١- ١٩٩٧م، ج٢/ ص٢٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١.

ارتكبوها بتلك التي ارتكبها القرامطة سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) في مكة المشرفة[١]، ولم يكن ذلك مستبعدًا عن بني مهدي، إذ "... ما كانوا يستحلون أخذ المكوسات من أحد خلا الحُجاج وأنهم كانوا يأخذون منهم مقام الدرهم بثلاثة دراهم..."[٢]، ومن هذا المنطلق كان لزامًا على صلاح الدين الأيوبي أن يبادر إلى القضاء على قوة بني مهدي الصاعدة، قبل أن يستفحل أمرهم ويصبحوا همًا يصرفه عن الأهم وهو قتال الصليبيين وطردهم من ديار الإسلام، لا سيما أن عبد النبي قد زعم "... أنه سيملك الأرض كلها"[٣].

**٢- القرصنة البحرية وتهديدها للملاحة في المنطقة:**

إن حال التمزق السياسي التي عاشتها اليمن خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وعدم وجود دولة مركزية تتولى حماية البلاد؛ جعل اليمن عرضة لخطر القرصنة البحرية، لا سيما إثر النجاح الذي حققه الفاطميون في القرن الماضي بتحويل التجارة الشرقية إلى البحر الأحمر فمصر بدلاً من بحر فارس فالعراق، وذلك بالتعاون مع دعاتهم في اليمن - الصليحيين - الذين تمكنوا من الاستحواذ على السواحل الجنوبية لليمن ولا سيما ميناء عدن ذي الأهمية التجارية، مما أدى إلى ازدحام ذلك الميناء بالمراكب القادمة من الهند والصين وسيلان وغيرها من بلاد المشرق، والمراكب القادمة من مصر والحبشة، الأمر الذي

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٥/ ص١١٧- ١١٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص١٧٣- ١٧٦.
(٢) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٥٠.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١.

تطلب وجود قوة بحرية تتولى تأمين النشاط الملاحي في المنطقة إذ كانت جزرالمحيط الهندي والبحر الأحمر تعج بالقراصنة المتربصين بالمراكب التجارية[١]، والأخطر من ذلك هو تضرر البعض من انتقال خطوط التجارة البحرية إلى عدن ومنها إلى مصر عبر البحر الأحمر مثل جزيرة قيس[٢] التي كانت تجني كثيرًا من المكاسب من وراء نقل البضائع ورسو السفن التجارية القاصدة بحر فارس، فلما تغيرت الأوضاع وأمسكت عدن بزمام التجارة الشرقية قصدتها المراكب من الأقطار كافة كونها المحطة الرئيسة في الطريق إلى مصر[٣].

وقد ظلت قيس تترقب الفرصة لتوجيه ضربة قاضية إلى عدن، سواء بتدميرها أو السيطرة عليها، إلا أن ذلك لم يكن ممكنًا في ظل سلطة قوية متيقظة تتولى الدفاع عن المدينة والذود عنها، ولكن تدهور الوضع السياسي في اليمن عمومًا وفي عدن خصوصًا قدم لقيس فرصة نادرة إثر نشوب ما عرف بفتنة (الرعارع) في عدن بين سبأ بن أبي السعود بن زريع وعلي بن أبي الغارات بن مسعود، التي استمرت سنتين بين عامي (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م - ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)، كل يريد عدن وما يتبعها خالصة له وحده من دون

(١) ابن حاتم: السمط، ص١٣١؛ ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٦٨.
(٢) جزيرة كيش: تعجيم قيس، جزيرة في وسط البحر، تعد من أعمال عمان رغم أن أهلها فرس، وهي مرفأ مراكب الهند وبحر فارس، ولصاحبها ثلث دخل البحرين، لملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه، وفيها مغاص اللؤلؤ؛ انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤/ ص٤٢٢.
(٣) سالم (السيد عبدالعزيز): البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٩٩٣م، ص٢٧؛ الحداد: التاريخ، مج٢/ ص٩١؛ السروري: الحياة السياسية، ص٤٩٧.

الآخر، وقد استغل صاحب قيس تلك الفرصة فأرسل أسطوله إلى المدينة ورست سفنه تحت جبل صيرة، وطلب مقدمهم من الطرفين المتنازعين التسليم، فاضطروا إلى المهادنة وإعمال الحيلة، لا سيما أنهم أخذوا على غرة، فأظهروا التسليم وإعلان الطاعة، حتى إذا نزل الجند إلى البر عملوا لهم وليمة وقدموا لهم الشراب، فلما ثملوا أخذوهم بالسيف(١).

وتعد حملة صاحب قيس الفاشلة أكبر محاولة لضرب ميناء عدن أو السيطرة عليه، الأمر الذي لو تم لأثر بدوره في الملاحة التجارية في البحر الأحمر، ومن ثم إلحاق الضرر باقتصاد مصر الذي تشكل تجارة البحر الأحمر رافدًا رئيسًا له، وعلى الرغم من أن الظروف خدمت الزريعيين حين لم يبادرهم أسطول قيس بالهجوم على غفلة بل طلب منهم التسليم مما أعطاهم فرصة لتدارك الخطر والتدبير له؛ فإن ضبط السواحل اليمنية وخفارتها لم تكن بالمهمة السهلة بل كانت تحتاج إلى إمكانات دولة مركزية تقوم بمحاربة القرصنة البحرية، وضمان أمن الملاحة التجارية في المنطقة التي استُخدمت سلاحًا اقتصاديًا قويًا فيما بعد لإضعاف اقتصاد العدو الصليبي، وتقوية اقتصاد الجبهة الإسلامية بالمقابل، الذي ينعكس بالتالي على أدائها العسكري ضد العدو.

**٣- محاولات الصليبيين النفاذ إلى البحر الأحمر والحجاز:**

ظلت مسألة أمن البحر الأحمر تؤرق مضجع المسلمين لدرجة أنه عندما أراد الخليفة هارون الرشيد شق قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر عن طريق برزخ السويس؛ خوّفه مستشاره من أن يحاول البيزنطيون - الذين

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٢٤- ١٢٥.

كانوا في حال حرب دائمة مع العباسيين - التسلل عبرها إلى البحر الأحمر، ومنه إلى الحجاز حيث الحرمان الشريفان، فترك الرشيد تلك الفكرة[١].

وفي مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد في سنة (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) قاد الملك بلدوين حملة إلى وادي عربة قام خلالها بعمارة حصن عرف بالشوبك يشرف إشرافًا مباشرًا على الطريق بين الشام ومصر[٢]، وفي سنة (٥١٠هـ/ ١١١٦م) تمكن بلدوين الأول ملك مملكة القدس اللاتينية من الوصول إلى ساحل البحر الأحمر على رأس حملة تمكنت من الاستيلاء على ميناء أيلة التي هرب أهلها خوفًا من بطش الصليبيين، وأقام هناك بعض الوقت يستطلع المنطقة ويتعرف تفاصيل المكان، وقام بتشييد قلعة متينة فوق جزيرة صغيرة مقابلة لأيلة تعرف بجزيرة فرعون، وحشدها بالجند والسلاح والمؤن[٣]، وكانت هذه الحملة جزءًا من المخطط الصليبي الرامي إلى عزل القوى الإسلامية في المنطقة بعضها عن بعض. وفي الشمال كانت إمارة الرها تشكل تهديدًا على طرق المواصلات بين الإمارات والأتابكيات السلجوقية في آسيا الصغرى والشام والموصل وبلاد فارس، فضلا عن محاولاتهم المستمرة للسيطرة على

(١) جرادات (وليد محمد): الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة - الدوحة، ط١- ١٩٨٦م، ص٥٩؛ ولم يكن الرشيد أول من فكر من المسلمين في شق تلك القناة، بل راودت الفكرة قبله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، إلا أنه صرف النظر عنها للمخاوف نفسها، انظر: جرادات، المصدر نفسه، ص٥٩، ٦٤.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص١٥٩، ١٦٠؛ عوض: الحروب الصليبية، ص١٠٤.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٢٥٧؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج٢/ قسم١/ ص١٦٠- ١٦١.

حران الواقعة على الطريق بين الموصل وحلب[١]، كما سعى الصليبيون بشتى الوسائل إلى السيطرة على المزيد من القلاع، أو تشييد بعضها في العمق الشامي في محاولة منهم لعزل الإمارات السلجوقية في دمشق وحلب وحمص بعضها عن بعض سواء بالعمل العسكري أو استغلال الخونة من المسلمين[٢].

وأما بالنسبة إلى مخططاتهم في البحر الأحمر فلم تكن تقف فقط عند أيلة التي لم يؤد احتلالها إلا إلى قطع الطريق البري بين مصر والحجاز، في حين ظلت قوافل التجار والحجاج تسلك طريق البحر رغم زيادة المكوس عليها من قبل السلطات في مصر الفاطمية والحجاز[٣]، وكان بلدوين الأول يهدف من وراء احتلال أيلة وعمارة قلعة جزيرة فرعون إلى أن يكون لمملكته المطلة على البحر المتوسط قاعدة متقدمة تطل على البحر الأحمر، بحيث يسهل دعمها وتقويتها واستخدامها في الوقت المناسب لضرب المسلمين في أقدس مقدساتهم (الحرمين الشريفين)، إذ لم يكن الصليبيون ليتوانوا عن غزو مكة المشرفة والمدينة المنورة، لا سيما بعد ما فعلوه ببيت المقدس (ثالث الحرمين)، وكان استهداف الصليبيين للحجاز هو بقصد انتهاك حرمة المقدسات الإسلامية كافة انتقامًا لتدنيس المسلمين لقبر المخلص - حسب زعمهم - فضلا عن أن حج المسلمين إلى مكة المشرفة

(١) الصلابي: دولة السلاجقة، ص٦١١.
(٢) ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله): تاريخ مدينة دمشق، تح: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر - بيروت، د.ط - ١٩٩٥م، ج٨/ ص٣٧٩؛ ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٣١.
(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٤٨- ٤٩؛ المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٢٣٣.

وزيارتهم لمسجد النبي ﷺ كانت مظهرًا من مظاهر الوحدة الإسلامية في ظل التمزق السياسي الذي تعيشه الأمة والذي أتاح للصليبيين فرصة غزو ديار الإسلام وإقامة مملكة لهم في قلب بلاد الإسلام، وبناءً على ذلك سعى الصليبيون إلى ضرب المسلمين في رمز وحدتهم وشعيرة تعد الركن الخامس من أركان دينهم(١).

كما كانت تجارة البحر الأحمر وموانئه التجارية المزدحمة بحركة السفن والبضائع هدفًا رئيسًا للصليبيين، وصار لزامًا عليهم خوض غمار البحر الأحمر حتى يتمكنوا من الوصول إلى موانئه التجارية ومنها ميناء عدن، فيتمكنوا بذلك من إحكام قبضتهم على الروافد الرئيسة للتجارة في المنطقة أو على الأقل إقلاق أمن الملاحة التجارية في البحر الأحمر؛ مما يؤدي إلى إجبار السفن المحملة بمتاجر الهند والصين إلى التعامل مع الصليبيين ودفع ضريبة المرور لهم على غرار ما تدفعه القوافل التجارية البرية المارة بالأراضي التي يحتلونها أو يشرفون على معابرها التجارية(٢).

إلا أن انشغال خلفاء بلدوين الأول بالتوسع على حساب جيرانهم في الشام، وكذلك محاولات أملريك (عموري) الأول احتلال مصر؛ أخرّت تنفيذ ذلك المشروع الصليبي العسكري للبحر الأحمر، فضلا عن مخاوف الصليبيين من خوض بحر لا يزال مجهولاً بالنسبة لهم، إذ كان البحر الأحمر منذ الفتح الإسلامي بحيرة إسلامية " . . . لم يعهدوا بهذا البحر

(١) عاشور: الحركة الصليبية،ج٢/ ص٦١٧ .
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص١٦٠؛ ربيع (حسنين محمد): البحر الأحمر في العصر الأيوبي، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث - جامعة عين شمس، د.ت، ص ١٠٨.

إفرنجيًا قط لا تاجرًا ولا محاربًا..."[١].

وأما بالنسبة إلى الصليبيين فقد مضوا في محاولتهم النفاذ إلى البحر الأحمر وتعرُّف سواحله والوصول إلى الحرمين الشريفين، وذلك من خلال المحاولة التي قام بها أمير حصن (الكرك) رينو دي شاتيون - أرناط الذي عرف بحقده الشديد على الإسلام والمسلمين - للوصول إلى الحجاز، فسار على رأس حملة يريد المدينة المنورة حتى وصل واحة تيماء معتديًا على قوافل الحجاج العزل من دون وازع من دين أو خلق، ولكنه انسحب فجأة بسبب هجوم الأيوبيين على إمارته (الكرك) وذلك سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م)[٢].

وبعد عامين من فشل حملة تيماء قام أرناط بمحاولة أخرى أكثر خطورة وجرأة، إذ قام بحمل عدد من المراكب المفككة على ظهور الجمال من الكرك إلى أيلة، وكان صلاح الدين قد حررها سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، فاحتل المدينة، وقام بتركيب المراكب وأنزلها البحر، وقسم أسطوله على قسمين: الأول ضرب الحصار على قلعة جزيرة فرعون حتى انقطع عنهم الماء وساءت أحوالهم، والثاني انطلق يشق مياه البحر الأحمر مغيرًا على موانئ الساحل الإفريقي الشرقي فهاجم عيذاب[٣]، فقتل وحرّق المراكب الراسية هناك ومنها مراكب قادمة من اليمن والهند[٤]، ثم واصل أسطولهم

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٩٨.
(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٨٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٦/ ص٦٠٦.
(٣) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم، كانت مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ ص١٧١.
(٤) العماد (القاضي عماد الدين الكاتب الأصفهاني): البرق الشامي، تح: فالح صالح حسين، مؤسسة عبدالحميد شومان -عمان، ط١- ١٩٨٧م، ج٥/ ص٦٩- ٧٢.

عمليات القرصنة على السفن المبحرة في البحر الأحمر وذلك في طريقهم إلى الحجاز، حيث نزلت قواتهم في ساحل الحوراء[١] قرب ينبع - ميناء المدينة المنورة - وأخذوا يتقدمون في الداخل حتى صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة[٢]، وقد استفاد أرناط من عنصر المفاجأة، إذ لم يتوقع المسلمون أن يصل الخطر الصليبي إلى البحر الأحمر الذي سارت فيه مراكب التجار والحجاج آمنة مطمئنة[٣]، وكان الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين الأيوبي نائبًا عن أخيه بمصر آنذاك، فبادر للتصدي لذلك الخطر الداهم، وأمر قائد الأسطول أن يتولى مطاردة سفن الصليبيين والقضاء عليهم، فانطلق الأسطول الأيوبي وراءهم حتى ينبع حيث نزلت قواتهم لمطاردة الصليبيين برًّا حتى تم القضاء على خطرهم، وكان أسطول الأيوبيين قد تمكن قبل ذلك من فك الحصار عن قلعة جزيرة فرعون، وأما الأسرى فقد تم نحرهم في منى والقاهرة لئلا يبقى منهم من يدل على عورات المسلمين[٤].

وحتى بعد انتصار المسلمين في حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وتحرير معظم الأراضي الإسلامية من الاحتلال الصليبي؛ تذكر المصادر أنه تم

(١) الحوراء: مرفأ صغير شرقي البحر الأحمر تقع ضمن الحجاز، وهي مرفأ سفن أهل مصر إلى المدينة، وهي بقعة غير ذات زرع ولا ضرع؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ ص٣١٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٩٨.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه والمجلد والصفحة.
(٤) ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي): رحلة ابن جبير، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ط٢- ١٩٩٨م، ص٥٤- ٥٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص١٣٤- ١٣٥ .

رصد جاسوسين في صعدة مع مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وألقي القبض عليهما وقد اتهما بأنهما باطنيان يريدان اغتيال الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (ت٦١٤هـ/ ١٢١٨م) الذي أمر بإخلاء سبيلهما ليخرجا إلى تهامة[١]، ويبدو أنهما واصلا رحلتهما حتى وصلا إلى عدن، فقد ذكر بامخرمة أن الشيخ جوهر[٢] قبض على اثنين من الغرباء اعترفا بأنهما نصرانيان خرجا من بلدهما متسترين بالإسلام فاستتابهما الشيخ وأسلما على يديه[٣]، ومهما يكن ما قيل حول صحة هاتين الروايتين فإنهما تحملان دلالة واضحة على محاولات الصليبين النفاذ إلى البحر الأحمر والسيطرة على موانئه الزاخرة بالحركة التجارية لا سيما تجارة الشرق الرائجة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) ابن دعثم: السيرة المنصورية، مج١/ ص٣٤٢؛ يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٣٨٢.
(٢) الشيخ جوهر: شيخ جليل من أهالي مدينة عدن اشتهر ببذل الخير، وتناقل الناس أخبار كراماته، اشتغل بالتجارة، توفي سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)؛ انظر: بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٣٩- ٤١.
(٣) بامخرمة: المصدر نفسه، ص٤٠- ٤١.

## المبحث الثاني

### موقف اليمن السياسي تحت الإدارة الأيوبية

في سنة (٥٩٦هـ/ ١١٧٤م) تمكنت القوات الأيوبية بقيادة توران شاه بن نجم الدين أيوب من القضاء على حكم بني مهدي في زبيد وبني زريع في عدن، والحد من قوة بني حاتم في صنعاء وقبيلة جنب في ذمار، وهكذا صارت اليمن جزءًا من الدولة الأيوبية التي امتد سلطانها ليشمل مصر والشام وديار بكر، فاكتمل في عهدهم عقد الجبهة الإسلامية المتحدة، الذي كان قد بدأ بنظمه كل من عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود من بعده، فصار المسلمون جبهة واحدة تمتد من برقة غربًا إلى الفرات شرقًا، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة وبلاد اليمن جنوبًا، وقد خضعت اليمن للأيوبيين قرابة خمسة وخمسين عامًا (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م - ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) عزز الأيوبيون خلالها حكمهم في اليمن بعدد من الحملات جاءت استجابة لظروف معينة مر بها الأيوبيون في اليمن، وسنتحدث فيما يلي عن أبرز الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية التي دفعت الأيوبيين إلى العمل على ضم اليمن تحت لوائهم، والغرض من إرسال حملة عسكرية بتلك القوة إلى اليمن في وقت كانت قاعدتهم الأساسية في مصر مهددة من الداخل والخارج، وهل كانت جهودهم الحربية في اليمن تستحق ذلك العناء؟ في ظل الصراع السياسي والعسكري الذي يخوضونه ضد الصليبيين أولاً، وضد القوى السياسية المناوئة لهم في الشام والعراق ومصر ثانيًا.

**أولاً- أسباب اهتمام الأيوبيين باليمن:**

**١- روايات المؤرخين حول أسباب حملة توران شاه إلى اليمن:**

اختلف الباحثون حول الأسباب التي أدت إلى اهتمام الأيوبيين باليمن وعملهم على ضمها إلى دولتهم، والمحافظة على نفوذهم في اليمن ضد أي تهديد داخلي أو خارجي، ولعل مرجع ذلك الاختلاف هو اختلاف المؤرخين المسلمين في الأسباب التي دعت الملك الناصر صلاح الدين يوسف لأن يرسل أخاه الأكبر توران شاه على رأس حملة عسكرية قوية ومعدة إعدادًا جيدًا كلفت كثيرا من الجهد والمال[١]. وسنتناول فيما يلي أبرز ما أورده المؤرخون حول أسباب حملة توران شاه، وهي:

١- رواية تقول بأن سبب إرسال صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن كان بسبب خوفه أن يهاجمه نور الدين محمود في مصر وينتزعها منه، فأراد أن يكون هناك بلد يتبعه ويلجأ إليه هو وأسرته، وأن حملة توران شاه على النوبة في سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م) كانت للغرض نفسه، إلا أن الاختيار وقع على اليمن لأنها أوسع وأكثر خيرات من النوبة[٢].

٢- رواية تقول بأن الشاعر عمارة اليمني استغل صداقته بتوران شاه وإقباله على شعره فحرضه على الاستيلاء على اليمن لنفسه، واصفًا له خيرات تلك البلاد وكثرة أموالها، وسهل له أمر فتحها وضعف حكامها، الأمر الذي صادف هوًى في نفس توران شاه الذي لم يكن إقطاعه بمصر يفي بنفقاته الكثيرة - لا سيما أنه قد اشتهر بالكرم والسخاء - فأستأذن أخاه

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص ٢٣٨؛أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص ٢٧٤.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٣٢.

صلاح الدين في القيام بحملة للاستيلاء على اليمن، فأذن له[١].

٣- رواية تقول إن سبب حملة توران شاه على اليمن هو أن صلاح الدين بعد أن رأى عظم قوته العسكرية وكثرة إخوته والتفافهم حوله وخوفه من أن ينقلبوا عليه، رغب في القيام باستعراض لقوته الحربية، ولم يجد ميدانًا مناسبًا غير القضاء على دولة بني مهدي في اليمن الذين قطعوا الخطبة لبني العباس في اليمن؛ وزعم عبد النبي بن مهدي أن ملكه سينتشر حتى يملك الأرض كلها[٢].

٤- تذكر بعض المصادر استنجاد رجل من أهل اليمن يدعى ابن النساخ بالخليفة العباسي المستضيء بالله شاكيًا ما فعله ابن مهدي والمذابح التي ارتكبها، واصفًا سوء عقيدته وقبح سيرته، وأن الخليفة أمر صلاح الدين بتجهيز حمله إلى اليمن للقضاء على دولة بني مهدي[٣].

٥- رواية تقول إن سبب فتح اليمن هو طلب الشريف قاسم بن غانم بن وهاس النجدة والنصرة من صلاح الدين ضد عبد النبي بن مهدي قاتل أخيه الشريف وهاس، بعد أن عجز الشريف قاسم عن الأخذ بثأر أخيه[٤]، وقيل إنه إنما استنجد بالخليفة العباسي المستضيء بالله الذي أمر صلاح الدين بنصرته[٥].

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٧٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٢/ ص٢٩١.
(٢) ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تح: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والنشر - القاهرة، ط١- ١٩٦٤م، ص٤٦.
(٣) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٥- ٥٢٦؛ الخزرجي: العسجد، ص١٤٦.
(٤) ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٦٧. (٥) الخزرجي: العسجد، ص١٤٨.

ويمكن القول إن جميع ما أوردناه هو عبارة عن روايات تمثل وجهة نظر من رواها من المؤرخين، وتخضع للعديد من الظروف الخاصة بهم[١]، وفيما يلي سنورد تحليلاً موجزًا لتلك الروايات والآراء حولها، في محاولة لمعرفة الدوافع الحقيقية لتوجه الأيوبيين لفتح اليمن وضمها إلى دولتهم.

فبالنسبة إلى الرواية التي تجعل من خوف صلاح الدين من نور الدين سببًا في طلبه ملك اليمن؛ فقد ورد فيها أن صلاح الدين استأذن نور الدين في إرساله حملة إلى اليمن، فكيف يستأذن صلاح الدين من نور الدين وهو الذي يشكل تهديدًا عليه - حسب الرواية -[٢]، وأما استخدام ما عرف (بالجفوة) بين نور الدين وصلاح الدين لتبرير مخاوف صلاح الدين من نور الدين فذلك غير صحيح؛ لأن ما حدث بينهما هو نتيجة التزام صلاح الدين بالمحافظة على مصر من التهديدات الداخلية والخارجية، الأمر الذي يصب في صميم سياسة نور الدين وإن حرمه ذلك من الدعم العسكري المباشر الذي كان يتوقعه من مصر، فضلا عن أن التعليمات التي وجهها نور الدين إلى توران شاه عندما أرسله عضدًا لأخيه لتبين مدى مكانة صلاح الدين عند نور الدين إذ يقول: " . . .إنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني. . . "[٣]، كما أن اليمن ليست بعيدة عن متناول نور الدين إذا كان هدفه هو صلاح الدين الذي كان الأجدر به أن يجالد نور الدين عن مصر فهي غنيمة أكبر إن كان يهدف للاستقلال عن نور الدين حقًا، وأخيرًا فلا ننسى أن نذكر أن ابن الأثير هو أقدم من نقلها - ومعظم المؤرخين

(١) السروري: الحياة السياسية، ص٢٦٢. (٢) عبدالعال: الأيوبيون، ص٧٣.
(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٧٢.

نقلوا عنه - وهو كما عبّر عنه أحد المستشرقين كان يحرف الكلم عن مواضعه لينال من صلاح الدين، فقد عاش في حمى أتابكة الموصل، كما عاش أسلافه من قبل، لذلك نقم على صلاح الدين لما فعله بنور الدين وابنه وأسرته فيما بعد، ولذلك تحوي كتبه كثيرًا من التحامل على صلاح الدين، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبارأن الدعاية التي روجها القادة المنافسون - وكانوا ناقمين على صلاح الدين - قد أثرت فيمن كانوا في الشام ومنهم ابن الأثير نفسه(١).

أما الرواية القائلة بأن الشاعر عمارة اليمني هو الذي حرض توران شاه على المسير إلى اليمن، فالأمر الواضح فيها هو أن ما قام به عمارة هو مجرد عامل محفز صادف اهتمام صلاح الدين وأخيه توران شاه بفكرة تسيير حملة إلى اليمن(٢)، في الوقت الذي كان فيه عمارة وشركاؤه ينسجون خيوط مؤامرتهم ضد صلاح الدين.

وأما ما ذكر عن كثرة نفقات توران شاه وحاجته إلى إقطاع فلم تكن أرض مصر تضيق عن إقطاع إضافي له بدلاً من اليمن التي لم يطل مقامه فيها أكثر من عام، واتفقت المصادر حول كراهيته المقام في اليمن وتعبيره عن ذلك في رسائله إلى أخيه يطلب منه الإذن بالمسير إلى الشام ليكون معه في جهاده(٣)، فضلا عن أن ذلك لم يكن سببًا كافيًا لتسيير حملة بتلك الضخامة إلى اليمن في وقت كانت الأخطار محدقة بصلاح الدين من كل جانب.

---

(١) H. A. R. Gibb: "The Arabic sources for the life of Saladin" in speculum 25 (1950) pp. 58-72.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٨.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص١٥٢- ١٥٥؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٣٨.

وأما ما ذكر من أن حملة اليمن كانت مجرد استعراض عسكري أراد منه صلاح الدين صرف قوة إخوته المتزايدة إلى اليمن لمجرد القضاء على دولة بني مهدي والتخلص من إخوته؛ فهو أمر مثير للدهشة؛ لأن صلاح الدين لم يستغل الفرصة للتخلص من إخوته، بل أرسل واحدًا هو توران شاه الذي سرعان ما أذن له بالانضمام إليه[١]، وحتى أخوه سيف الإسلام طغتكين توالت عليه رسائل أخيه يطلب منه القدوم لنصرته ومشاركته الجهاد ضد الصليبيين[٢]، فكيف تتاح لصلاح الدين فرصة التخلص من منافسة إخوته له ولا يستغلها الاستغلال الأمثل، بل يبدي لهم فيما بعد رغبته بانضمامهم إليه في جهاده، مما يدل على أن مسير توران شاه إلى اليمن كان في وقت شديد الحرج لصلاح الدين، ولكن فتح اليمن أمرٌ يستحق المجازفة لأجله.

أما رسالة ابن النساخ فقد ثبت تاريخيًا أنها كانت سنة (٦١١هـ/ ١٢١٤م)، وهي رسالة بعث بها أحد رجال المطرفية الذين اضطهدهم الإمام عبدالله بن حمزة كما بينا في الفصل السابق، مما جعلهم يستنجدون بالخليفة العباسي الناصر لدين الله، وكانت رسالة ابن النساخ سببًا من أسباب حملة الملك المسعود بن الكامل الأيوبي على اليمن، ويعد الجندي أقدم من روى هذا الخبر، ويبدو أنه حصل خلط لديه بين رسالة الشريف قاسم بن غانم وطلبه النصرة على بني مهدي ورسالة ابن النساخ الذي نكل الإمام عبدالله بن حمزة بقومه[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٦٤- ٦٥.
(٢) العماد (القاضي عماد الدين الأصفهاني الكاتب): الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، د.ط - د.ت، ص٣٧٧، ٤٢١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٦٥- ٣٦٩.
(٣) الحداد: التاريخ، مج٢/ ص٣٥٢- ٣٥٣؛ عبدالعال: الأيوبيون، ص٧٦.

هذا بالنسبة إلى رسالة ابن النساخ، أما رسالة الأشراف السليمانيين إلى الخليفة الناصر لدين الله طالبين نصرته على عبد النبي بن مهدي؛ فهي ثابتة تاريخيًا ومنطقية من حيث الأحداث رغم الاختلاف حول وجهة الرسالة هل كانت إلى بغداد أم إلى القاهرة؟[١]، ومع ذلك فهي لا يمكن أن تكون السبب الأساسي لإنفاذ جيش إلى اليمن، فالفظائع التي ارتكبها بنو مهدي أخذت تترامى إلى مسامع الناس في العراق ومصر والشام منذ سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) حين اجتاحوا زبيد وتدفقت جموع النازحين برًّا وبحرًا إلى عدن[٢]، فضلا عن كثير من العلماء الذين لجؤوا إلى الجبال أو إلى الحجاز[٣]، وقد استمرت تلك المجازر حتى سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٦م) فلا يعقل ألا تتحرك الخلافة العباسية لوضع حد لبني مهدي إلا بعد استنجاد الشريف قاسم بهم الذي انتظر هو الآخر حتى سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) ليطلب النصرة، فيكتب الخليفة إلى صلاح الدين بنصرة الشريف قاسم ومساعدته للأخذ بثأر أخيه، والأقرب إلى المنطق هو أن استنجاد الأشراف السليمانيين بالخلافة العباسية كان في وقت سابق عن سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)، ولما صار ضم اليمن إلى الجبهة الإسلامية المتحدة ضرورة ملحة صار القضاء على بني مهدي من أولويات العمليات العسكرية للقوات الأيوبية في اليمن.

**٢- استقراء الأسباب التي جعلت صلاح الدين يعمل على ضم اليمن إلى سلطانه.**

سنحاول فيما يلي استقراء المغزى السياسي من (فتح اليمن) على ضوء

(١) الخزرجي: العسجد، ١٤٥- ١٤٦، ١٤٨؛ الكبسي: اللطائف، ٩٦.
(٢) الجندي: السلوك، ج١/ ص٣٧٢. (٣) ابن سمرة: طبقات، ص١٧٧- ١٧٩.

الاستراتيجية السياسية والعسكرية والاقتصادية التي أسسها عماد الدين زنكي، وطورها إلى حد كبير ابنه نور الدين محمود، وصولاً إلى صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن من تحقيق حلم الجبهة الإسلامية المتحدة، لتصبح واقعًا حيًا أثار الرعب في أوروبا ذاتها فضلاً عن مملكة القدس اللاتينية، وسنركز فيما يلي على الهدف السياسي من (فتح اليمن) مع الإشارة إلى الأهداف العسكرية والاقتصادية، التي سنتناول كلاً منها في موضعه.

**أ - الأسباب السياسية:**

كان من أهم الأسباب السياسية التي أدت إلى ضم اليمن إلى الدولة الأيوبية ما يأتي:

- إعادة توحيد اليمن سياسيًا، والقضاء على القوى المتنازعة التي أحدثت اضطرابًا في أمن المنطقة.

- بناء جبهة إسلامية موحدة تحت راية الخلافة العباسية تتولى مسؤولية الجهاد وكسر العدو الصليبي وتحرير ما احتله من ديار الإسلام والحفاظ عليها.

- القضاء على الدولة الفاطمية واستئصال الجيوب التابعة لهم، حيث كانت اليمن من أهم مراكزهم وقاعدة مهمة لدعاتهم الذين سيطروا على معظم البلاد.

- إحكام سيطرة الأيوبيين على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر والحدود الجنوبية لديار الإسلام، وتضييق الخناق على الحبشة لمنع تسرب الفكرة الصليبية إليها، أو أي تواصل بينهم وبين الصليبيين في الشمال عن طريق البحر الأحمر.

ب - الأسباب العسكرية:

- إمكان أن توفر اليمن للأيوبيين كثيرًا من الدعم المالي اللازم لإعداد الجيوش وتطويرها.

- الحصول على الدواب من خيل وإبل... إلخ، وكذلك السلاح والمواد الأولية للصناعات العسكرية .

- الإفادة من موقع اليمن الاستراتيجي فيما يأتي:

- ضمان استقرار الحجاز وحمايته من أي تهديد محتمل.

- حماية الملاحة البحرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي من خطر القراصنة لضمان استمرار الحركة التجارية.

ج - الأسباب الاقتصادية:

- توحيد موارد اليمن الاقتصادية وتوظيفها التوظيف الأمثل الذي يصب في مصلحة اقتصاد الجبهة الإسلامية، والإفادة من إمكانات اليمن الاقتصادية لتحقيق التكامل الاقتصادي الإسلامي لخنق اقتصاد الصليبيين، ومن ثم انهيار مؤسساتهم المدنية والعسكرية.

- تأمين حركة الملاحة التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندي لضمان استمرار تدفق التجارة الشرقية.

- دعم التجارة الكارمية التي يعد ميناء عدن أهم محطاتها التجارية، نظرًا لأهميتها بالنسبة لاقتصاد المنطقة في تلك الحقبة.

**ثانيًا- النتائج السياسية لتولي الأيوبيين زمام الإدارة في اليمن:**

أثبتت المحاولات الأولى للتصدي للصليبيين ودحرهم، التي قام بها عدد

من قادة الجهاد الإسلامي؛ أنه من المستحيل القيام بعمل عسكري حاسم ضد العدو الصليبي ومواقعه المحصنة وقواته المعدة والمنظمة، فضلا عن الدعم غير المنقطع من أوروبا، في ظل الأوضاع السياسية المزرية التي تعيشها بلاد الإسلام من التفكك والانقسامات والمؤامرات والصراع على السلطة والنفوذ، وقد ظهر ذلك جليًا من خلال المحاولات الفاشلة لكسر شوكة العدو الصليبي وتحرير ما احتلوه من ديار الإسلام، في وقت كان الأمراء المحليون والقادة يكيد بعضهم لبعض، وخناجر الحشاشين تتناول بالغدر أبرز أعلام الجهاد ورجاله من القادة والأمراء والعلماء وحتى الخلفاء[١].

ونتيجة لكل ذلك ظهرت فكرة بناء جبهة إسلامية موحدة تضم مصر والشام والعراق وغيرها من ديار الإسلام، تحت راية الخلافة العباسية التي كانت لا تزال تحتل مكانة خاصة لدى معظم المسلمين وهيبة ترسخت في أفئدة الناس على مدى أربعة قرون، على الرغم من ضعف سلطانها السياسي على الأقاليم بسبب تسلط الملوك والسلاطين على خلفائها، وقيام الخلافة الفاطمية التي تمكنت من انتزاع عدد من الأقاليم المهمة منهم كمصر والشام واليمن، بل هددت بغداد نفسها.

أما الخلافة الفاطمية فإن مشاكلها الداخلية وخسارتها معظم الأقاليم التابعة لها في المغرب والشام مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والصراعات المتزايدة بين الوزراء؛ كل ذلك جعل مكانتها وهيبتها تتراجع فيما تبقى من ممتلكاتها، حتى صارت عرضة للاحتلال من

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٦/ ص٣٣٤، ٦٥٢؛ الذهبي: العبر، ج٢/ ص٣٨٣-٣٨٤، ٣٩١، ٣٤٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٥٤، ٢١١، ٢٢٥.

قبل الصليبيين، وقد أدى انكفاء الفاطميين على أنفسهم وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية والخارجية إلى جعل كفة القوى الموالية للخلافة العباسية ترجح في المنطقة، وصار القضاء على الفاطميين هدفًا أساسيًا لتلك القوى لأجل إكمال توحيد ديار الإسلام تحت راية الخلافة العباسية.

ومن هذا المنطلق جاءت جهود عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود في توحيد البلاد حتى نجحوا في ضم الموصل وحلب ودمشق في وحدة سياسية، وكان أكبر نصر لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة هو دخول قوات نور الدين مصر وإقامة الخطبة فيها للخلافة العباسية - فيما بعد - ولكن لم يكن توحيد ديار الإسلام في جبهة واحدة ليتوقف عند مصر لا سيما أن إدارة ذلك الإقليم (مصر) قد آلت إلى قائد يملك قدرات سياسية وعسكرية فذة هو صلاح الدين الأيوبي، الذي نشأ في كنف نور الدين محمود وورث عنه طموحه وحلمه الكبير بتحرير بيت المقدس، والذي أدرك مثل قائده أن ذلك لا يكون إلا بتوحيد المسلمين سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا في جبهة واحدة تدين بالولاء للخلافة العباسية، وبذلك يصبحون قادرين ليس فقط على التصدي للصليبيين في بلاد الشام، بل مواجهة أوروبا كلها بجحافلها التي ستهب لنجدة إخوانهم مثلما حدث بعد استرداد المسلمين للرها سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م).

وقد اتبع صلاح الدين الأيوبي سياسة نور الدين في دعم الجبهة الإسلامية وتوسيع دائرتها وتأمين حدودها، فقام بإرسال عدد من الحملات تمكنت من:

١- استرداد أيلة، ذلك الميناء المهم المطل على البحر الأحمر من الصليبيين سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م).

٢- تأمين حدود مصر الغربية بالسيطرة على برقة سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م).

٣- تطهير جنوب مصر من بقايا الفاطميين وتأمين حدودها مع مملكة النوبة المسيحية، وذلك بواسطة حملة توران شاه على تلك المناطق في سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م).

أما حملة توران شاه على اليمن فقد حقق من ورائها كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي المكاسب السياسية الآتية:

**١- القضاء على الكيانات السياسية المتنازعة في اليمن:**

تمكن الأيوبيون من القضاء على الكيانات السياسية التي تقاسمت حكم اليمن وجرّت البلاد إلى سلسلة من الحروب الدموية من أجل الاستحواذ على مزيد من المناطق مما زاد من تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للبلاد، وقد بلغ ذلك التمزق والصراع ذروته بظهور دولة بني مهدي التي اتخذت لنفسها سياسة حربية عدوانية ضد أية قوة منافسة لها، فسفكوا الدماء وسبوا الحرائر، بل تجاوز خطرهم اليمن إلى التفكير بالسير إلى مكة المشرفة[1]، ويعد الإنجاز الذي حققه توران شاه في اليمن حدثًا ذا أهمية بالغة، إذ تم توحيد اليمن، ووضع حد لمرحلة من الفتن والحروب التي شغلت اليمنيين عن القيام بدورهم في الإسهام في نصرة إخوانهم الذين يجاهدون الصليبيين في مصر وبلاد الشام، كما أن حملة توران شاه جاء توقيتها مناسبًا للقضاء على خطر بني مهدي الذين ظلت دولتهم تشكل خطرًا على أمن المنطقة، لا سيما أن حملاتهم وصلت إلى مكة، في ظل دعوة

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٧٢.

بني مهدي لأنفسهم بالخلافة، فهددوا وحدة بلاد الإسلام التي يكافح نور الدين محمود وصلاح الدين محمود لتحقيقها، لا سيما بعد القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، فتحققت بذلك وحدة مصر والشام، وصار من الحزم المبادرة إلى القضاء على ذلك الخطر المتنامي لبني مهدي وأطماعهم الواسعة التي تشمل الأرض كلها[١] قبل أن يستفحل ويسبب للأيوبيين من المشاكل ما هم في غنًى عنه، لا سيما أن الخلافة العباسية قد أبدت قلقها من تزايد خطر بني مهدي بعدما تنفست الصعداء إثر زوال دولة الفاطميين في مصر، ومن المرجح أن هدف القضاء على بني مهدي هو الذي حدد التوقيت لحملة توران شاه إلى اليمن، الذي تزامن بعد كسر قوات عبد النبي على يد تحالف بني زريع وبني حاتم عند ذي عدينة[٢] في ربيع الأول سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)[٣]، في حين غادرت الحملة مصر في رجب من العام نفسه[٤].

وبضم الأيوبيين اليمن والقضاء على القوى السياسية المحلية المتعددة التي أضعفت صراعاتها البلاد، وقللت من الدور الذي يمكن أن تلعبه، إذ "...لو استقل مجموع اليمن لملك واحد كبر محله وعظم قدره في الممالك الجليلة..."[٥]، فعاد لليمن ثقلها السياسي في المنطقة، وارتبطت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١.
(٢) ذي عدينة (بضم ففتح فسكون): منطقة في الطرف الجنوبي من مدينة تعز، أسفل جبل صبر، وهي التي يقع فيها جامع (المظفر) حاليًا. المقحفي: المعجم، ج٢/ ص١٠٣١.
(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٦٥؛ الخزرجي: العسجد، ص١٤٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص٢٩١.
(٥) ابن فضل الله (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "القسم الخاص بمملكة اليمن"، تح: أيمن فؤاد سيد، دار الاعتصام - القاهرة، د.ط - د.ت، ص٥١.

بالأحداث التي تمر بها الأمة والجهاد الذي تخوضه ضد الوجود الصليبي في المنطقة، وذلك عبر الإدارة الأيوبية للبلاد، وأكبر دليل على ذلك الكتب والمراسلات المتبادلة بين القيادة الأيوبية في مصر والشام وإدارتهم في اليمن، التي من المؤكد أن أي تفاعل شعبي من اليمن كان يتم عن طريقها، مما أهّل اليمن لتؤدي دورًا في دعم الجهاد ضد الصليبيين، سواء في العصر الأيوبي أو العصر الرسولي فيما بعد.

**٢- توطيد سلطة الخلافة العباسية:**

كانت الخلافة العباسية تعد القلب النابض لديار الإسلام، وتتجسد فيها الزعامة الروحية للمسلمين في أقطار الخلافة، على الرغم من الضعف الذي كانت تعانيه بسبب تسلط القوى السياسية المتغلبة عليها واستئثارها بسلطان الخلافة، فصارت تلك القوى المتغلبة ذات سلطان على البلاد والعباد كل ذلك باسم الخليفة العباسي الذي ظل لمركزه هيبة ترسخت على مدى أربعة قرون، فكانت الأقاليم تحفظ لبغداد مكانتها بصفتها دار الخلافة وإن كانت مستقلة عمليًا عنها، فالزياديون لم يكن يحول بينهم وبين الإطاحة بهم من قبل وزرائهم إلا مداومتهم إظهار الولاء لبني العباس، حيث "...ساسوا قلوب الرعايا بإبقاء الخطبة لبني العباس..."[(١)]، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى النجاحيين الذين مثلوا آخر قوة سياسية في اليمن موالية للعباسيين[(٢)].

ومع وصول جحافل الصليبيين إلى الشام وما ارتكبوه من مجازر في المدن التي سقطت في أيديهم؛ لجأ الناس - العلماء والزعماء والعامة -

(١) عمارة: المفيد، ص٧٦.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص١١٤.

إلى بغداد طالبين النصرة من الخليفة، مما يدل على أنه على الرغم من تسلط الأمراء على ما تحت أيديهم من بلاد فإن الخلافة العباسية ظلت هي الملجأ والملاذ للمسلمين في الملمات[١].

ومن ناحية أخرى فإن جهاد العدو الصليبي كان يحتاج إلى تكاتف القوى الإسلامية في المنطقة وتعاون الأمراء المحليين فيما بينهم، ولكنه أمر كان من المستحيل تحقيقه في ظل الخلافات السياسية العميقة والمنازعات والمؤامرات التي عصفت بالعلاقات فيما بينهم، الأمر الذي جعل من الواجب على أية قيادة متحمسة للجهاد وتحرير بيت المقدس أن تأخذ على عاتقها توحيد المسلمين في الشام ومصر - خطوط المواجهة - تحت راية واحدة يدين لها بالولاء أمراؤهم وتلتف حولها جماهير الأمة، وذلك أمر لا يتأتى إلا لقيادة تحظى بمباركة الخلافة العباسية وثقتها كي تنال شرعية تمكنها من توحيد المسلمين وإخضاع الأمراء المتصارعين والمتراخين عن الجهاد.

وقد تم تطبيق هذه السياسة على يد عماد الدين زنكي أتابك الموصل الذي تمكن من ضم حلب في سنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٧م)، و ديار بكر في سنة (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)[٢] إلى دولته التي صارت تحكم شمال العراق وبلاد الشام، وهو ما مكنه من توجيه ضربة قوية للصليبيين باستعادة الرها سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)، الأمر الذي عزز من مكانته في مواجهة السلطان

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٦٩- ١٧٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٦/ ص٦١٢- ٦١٣، مج٧/ ص ١٨، ٤٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج١/ ص ١١٨.

السلجوقي والخليفة العباسي[١].

وقد واصل نور الدين محمود سياسة والده إذ عمل انطلاقًا من محور (الموصل/ حلب) على ضم محور (دمشق/ القاهرة)، فتمكن من الاستيلاء على دمشق سنة (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، وتم له بذلك توحيد الجبهة الشمالية التي صارت قوة مرهوبة من قبل الصليبيين الذين سارعوا لمهاجمة مصر مستغلين ضعف الخلافة الفاطمية والصراع بين وزرائها، فما كان من نور الدين إلا أن بادر إلى إنقاذ مصر لعلمه أن من يحصل على مصر فإن ميزان القوة يميل لصالحه، وهو أمر فطن له كذلك الصليبيون، إذ إن اشتراطهم على الفاطميين سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) إقامة قوة من الفرسان الصليبيين بالقاهرة (شحنة) ومندوبًا عن ملكهم هو إجراء عسكري ينطوي في حقيقته على دعاية سياسية لهم في أوروبا بأن مصر قد صارت تابعة لهم[٢]، وعلى الرغم من ذلك فإن النصر كان في النهاية لصالح نور الدين الذي تمكن من ضم مصر تحت لوائه معززًا ذلك بإقامة الخطبة للعباسيين في مصر وإسقاط الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)[٣].

ويمكن لنا أن نتصور مقدار الحظوة التي نالها نور الدين عند الخليفة عندما وصلت بشائره بإقامة الخطبة له في مصر وزوال الدولة الفاطمية، مما زاد من نفوذ نور الدين وسلطانه على ما تحت يده من أقاليم، وكأن كل نصر ومجد يحققه للخليفة هو زيادة في قوته وسلطانه السياسي ومن ثم

(١) قاسم عبده: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط١- ٢٠٠١م، ص٣٥-٤٠.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٥٤١.
(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢١٧- ٢٢٠؛ الذهبي: العبر، ج٣/ ص٤٩.

التفاف الناس حوله وتأييدهم له؛ كيف لا وهو حامل راية الجهاد ضد الصليبيين والسلطان الشرعي لهم بتفويض من الخليفة في بغداد، وقد انتقل ذلك الوعي السياسي والطموح إلى تلميذه ونائبه في مصر صلاح الدين الأيوبي الذي واصل سياسة مولاه في ضم المزيد من الأقاليم تحت سلطان العباسيين كما بينا.

والحقيقة أن حملة اليمن هي نصر سياسي لصلاح الدين على الرغم من أنها تمت بموافقة نور الدين الذي ساق البشارة بفتح اليمن إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله[١]، فقد كان صلاح الدين هو المخطط لهذه الحملة والمشرف على إعدادها ولذلك كان فتح اليمن دعمًا لمركز صلاح الدين السياسي والعسكري من جهة، وضمانًا لسيطرته على البحر الأحمر بما له من أهمية دينية واقتصادية من الجهة الأخرى[٢]، فقد توفي نور الدين في العام نفسه الذي فتحت فيه اليمن، مخلفًا طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ليتولى حكم مملكته المترامية الأطراف، فدب النزاع بين أمراء أبيه حول الوصاية عليه حتى طمع فيهم الصليبيون، فهاجموا تخوم دمشق، ولم يستطع أميرها دفعهم إلا ببذل المال لهم وإطلاق أسراهم[٣]، ولما رأى صلاح الدين أن ما بناه نور الدين يوشك أن ينهار وجد أن عليه المبادرة لإنقاذ حلم المسلمين بالتوحد وتحرير بيت المقدس، ولكن كان عليه أولاً السعي لإسباغ الشرعية على حكمه لتقوية موقفه أمام من يتسلطون على إرث نور الدين وملكه متذرعين بالوصاية على ابنه الطفل، فضلا عن أن ذلك

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢/ ص٢٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩١.
(٢) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٠.
(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٣٢٢؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٥٨٢.

سيدعم موقفه أمام البيت الزنكي في الموصل، الذين يمثلون الورثة الشرعيين لمملكة نور الدين[١].

وهنا تظهر عبقرية صلاح الدين السياسية، إذ أقام الخطبة للصالح إسماعيل بن نور الدين في مصر واليمن، وضرب السكة وعليها اسم الخليفة والصالح إسماعيل يتلوه الناصر صلاح الدين مما أكسبه ثقة الناس عامة والخليفة خاصة[٢]، واستمر ذلك الوضع حتى صارت الفرصة سانحة أمامه سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٥م) للتحرك نحو الشام مطالبًا بالوصاية على ولد نور الدين، وكان قد أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله رسالة تضمنت كتابًا طويلا يعدد فيه " . . .ما للسلطان [صلاح الدين] من الأيادي في جهاد الإفرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب وإقامة الخطبة العباسية بها . . ."[٣]، ولا يستبعد أن يكون قد أرفق ذلك الكتاب بدنانير ضربت باسم الخليفة في اليمن كما صنع مع الصالح إسماعيل[٤]، وقد ختم صلاح الدين رسالته ببيان قصده من تعداد ما سبق: " . . .والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح البلاد، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطيقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا . . ."[٥].

---

(١) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٤١
(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص ٣٢٠؛ قاسم: المرجع نفسه، ص٤١.
(٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ج٢/ ص٣٥٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٤٤.
(٥) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٣٦٥-٣٦٦.

وسرعان ما أثمرت جهود صلاح الدين، إذ جاءته رسل الخليفة في حماة ومعهم التشريفات والأعلام السود، والتوقيع بالسلطنة على مصر واليمن والشام والمغرب وما فتحه من البلاد والأقاليم[١]، بل منحت الألقاب التشريفية لأفراد البيت الأيوبي ولا سيما الملك المعظم شمس الدولة توران شاه، إذ منحه الخليفة لقب "مصطفى أمير المؤمنين" تقديرًا لجهوده في بسط سلطان الخلافة العباسية على مزيد من البلاد والأقاليم[٢]، ولا عجب في ذلك إذ بلغ من أهمية فتح اليمن عند العباسيين أن تسابق الشعراء في وصف فتوحات صلاح الدين من خلال مدحهم للخليفة، فيقول ابن التعاويذي[٣]:

دانت لهيبتك المما لك والمعاقل والمدن
بالمشرفيات الصوا رم والمثقفة اللدن
وأتتك أسلاب الملو ك من الصعيد إلى عدن
سلب الدعي بأرض مصر والمضلل في اليمن[٤]

وقد أظهر هذا الحدث براعة صلاح الدين السياسية الفائقة التي مكنته من أن يصبح هو الحاكم الشرعي على أملاك نور الدين، فصار الأمراء المتنافسون مجرد عصاة خارجين على السلطة الشرعية ممثلة في صلاح الدين

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج٢/ ص٣٨٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج١٢/ ص٣١٦.
(٣) ابن التعاويذي: أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبدالله الكاتب المعروف بابن التعويذي، شاعر مشهور، عمل كاتبًا بديوان المقاطعات ببغداد، وقد عمي في آخر عمره، وتوفي سنة(٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وقيل (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) ؛انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤/ ص٤٦٦-٤٧٣.
(٤) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٦٧- ٢٦٨.

وخلفه الخلافة العباسية، وأصبح تحركه السياسي والعسكري مأمون العاقبة وبموافقة القوى السياسية والشعوب الإسلامية في المنطقة[١]، هذا من ناحية بناء الجبهة الإسلامية وتوحيد المسلمين في مواجهة عدوهم، وأما بالنسبة إلى الصليبيين فقد صار عليهم مواجهة سلطان تمتد مملكته من برقة غربًا إلى الفرات شرقًا، ومن الموصل شمالاً إلى اليمن والنوبة جنوبًا، وهو ما أثار الرعب في نفوسهم حتى خاطبه الإمبراطور الألماني فريدريك الأول (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م - ٥٨٧هـ/ ١١٩٠م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في خطاب وجهه إليه بـ(حاكم الشرق الشهير)[٢]، الأمر الذي يبين مدى خشية الصليبيين من ضخامة مملكته التي مكنته من التصدي لهم وكسرهم وتحرير بيت المقدس والساحل الشامي، بل التصدي بقوة للحملة الصليبية الثالثة على الرغم من ضخامتها وقوتها.

وأكبر دليل على المكانة الخاصة لليمن في حسابات صلاح الدين السياسية هو اهتمامه الكبير بالحفاظ على تبعية اليمن لدولته، وذلك من خلال متابعته أحوال اليمن وتفقده الأوضاع فيها عبر المراسلات التي تمت بينه وبين نواب أخيه توران شاه عن الأوضاع في اليمن، في الوقت الذي كان يخوض فيه معارك ضارية في شمال بلاد الشام والموصل لإكمال توحيد المسلمين[٣]، وبلغ من اهتمامه ومتابعته الأوضاع باليمن أنه ما إن استشعر الخطر من

(١) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤١.
(٢) مجهول (مؤلف إنجليزي معاصر للحملة الثالثة): الحرب الصليبية الثالثة، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ٢٠٠٠م، ج١/ ص٥٧- ٦٣؛ سلامة (جلال حسني): عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، دار الفاروق - نابلس، ط١- ١٩٩٨م، ص١٥٢.
(٣) العماد الكاتب: البرق الشامي، ج٥/ ص٤٥- ٤٧.

الصراع الذي نشب بين نواب أخيه في اليمن وادعاء كل منهم الملك لنفسه حتى ضرب كل منهم سكة خاصة به وحرم على أهل ولايته التعامل بغيرها[١]، بل وصل الأمر إلى أن أمر كل منهم أن يخطب له على المنابر[٢]، فبادر إلى إرسال حملة أخرى بقيادة والي القاهرة صارم الدين خطلبا " . . .لتمهيد أمرها وتقوية ثغرها . . ."[٣]، وذلك في سنة (٥٧٧هـ/ ١١٧٩م)[٤]، مما يبين مدى أهمية اليمن في سياسة صلاح الدين حتى صارت ثغرًا مثل الشام ومصر.

نجح خطلبا في تنفيذ مهمته وإعادة الانضباط إلى الإدارة الأيوبية في اليمن، إلا أنه سرعان ما مرض مرضًا شديدًا توفي في إثره، فعادت الفوضى والصراع بين النواب في وقت تعرضت مكانة صلاح الدين السياسية وتعلق جماهير المسلمين به إلى تهديد خطير سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٣م) إثر قيام سفن (أرناط) باختراق البحر الأحمر مهاجمًا سواحله الشرقية والغربية، وتكمن خطورة تلك الحملة في المغزى السياسي من ورائها، إذ كان هدف (أرناط):

أ - الاعتداء على الحرمين الشريفين ولا سيما قبر النبي ﷺ، فيحقق بذلك نصرًا مدويًا للصليبيين يتردد في أنحاء أوروبا، ومن جهة ثانية تسقط هيبة صلاح الدين بين المسلمين، ويتقوى بذلك منافسوه، فيظهر بمظهر العاجز عن حماية أقدس مقدسات المسلمين[٥].

---

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٧٨؛ الخزرجي: العسجد، ص١٥٦- ١٥٧.
(٢) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص١٣١.
(٣) العماد الكاتب: البرق الشامي، ج٥/ ص٤٤.
(٤) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٤.
(٥) عبدالعال: الأيوبيون، ص١١٧؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥١- ٥٢؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم٢/ ص٧٠٦- ٧٠٧.

ب - السيطرة على البحر الأحمر عبر التحكم بمرافئه الشمالية واحتلال عدن في الجنوب، فيصبح ذلك البحر تحت سيطرتهم بعد أن كان بحيرة إسلامية، وهو هدف له أبعاده السياسية والاقتصادية في المنطقة(١).

ج - تأمين الاتصال مع مملكة الحبشة النصرانية تمهيدًا لانضمامها إلى الصليبيين في حربهم ضد المسلمين، وبذلك يصبح معهم حليف قوي جنوب ديار الإسلام يمكن من خلاله توجيه الضربات للمسلمين من الخلف(٢).

وكادت مخططات أرناط تنجح لولا تدخل أسطول مصر في الوقت المناسب، وقد أثار ذلك نقمة صلاح الدين على نوابه في اليمن باعتبار اليمن حامية للحدود الجنوبية في الدولة، وتقع على عاتقها مسؤولية التصدي لمثل تلك المحاولات، فما كان منه إلا أن أرسل - في العام التالي - أخاه سيف الإسلام طغتكين على رأس حملة اتسمت باستخدام العنف للقضاء على النواب والقوى المحلية في اليمن(٣).

لقد كانت سياسة صلاح الدين تجاه أي جزء من دولته - ومنها اليمن - متجسدة في خطاب أرسلهُ إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله جاء فيه " . . .ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٩٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص١٣٩.
(٢) عبدالعال: الأيوبيون، ص١١٧.
(٣) عبدالعال: المرجع نفسه، ص١١٩؛ العسيري (محمد بن علي مسفر): الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي، دار المدني - جدة، ط١- ١٩٨٥م، ص٦٧ هامش رقم (٢).

العدة..."[١]، وهكذا تمكن صلاح الدين من قلب موازين القوى في المنطقة لصالحه، فقد كانت مملكة القدس اللاتينية تعاني العجز والضعف في ظل غياب ملك قوي ذي مقدرة سياسية وعسكرية، وبلاط منقسم تمزقه المؤامرات، والخلاف الكبير بين الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الصليبية في الشرق، وأخيرًا انشغال أوروبا بمشاكلها الداخلية والصراع بين ملوكها مما يجعلهم عاجزين عن مد يد العون لإخوانهم في حربهم ضد المسلمين[٢].

وعلى الجانب الآخر كانت قوة صلاح الدين العسكرية في تصاعد مستمر، كما أن نفوذه السياسي المباشر امتد من مصر إلى الحجاز واليمن وشرق إفريقيا والشام وأعالي العراق فضلاً عن بلاد المغرب، وكانت سيطرته السياسية قوية في البلاد الخاضعة لحكمه المباشر[٣].

وقد بقيت اليمن جزءًا من الدولة الأيوبية في مصر والشام إلى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، فاستقل بها أخوه طغتكين وذريته من بعده، الذين شغلوا بمشاكل ملكهم مثل بقية الأيوبيين في مصر والشام، حيث شغل أبناء صلاح الدين بحرب بعضهم ضد بعض، إلى أن تمكن عمهم الملك العادل أبو بكر بعد سبع سنوات من وفاة أخيه من تنحيتهم والاستحواذ بمملكة صلاح الدين دونهم[٤]، وكان أخوه طغتكين قد توفي قبل ذلك وخلفه ابنه

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص١٧٨- ١٧٩.
(٢) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٩؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم١/ ص٢٣- ٢٤.
(٣) قاسم: المرجع نفسه، ص٤٩.
(٤) العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص٧٢- ٧٣.

المعز إسماعيل الذي تتفق المصادر على عدم كفايته السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي على الرغم من بسالته العسكرية[١]، إذ بلغ من تهوره أن ادعى لنفسه الخلافة زاعمًا أن أسرته تنتسب إلى بني أمية، الأمر الذي سبب حرجًا للأيوبيين في مصر والشام حتى أرسل أعمامه إليه يعاتبونه ويوبخونه على فعلته[٢]، كما أثارت فعلته حفيظة من بقي على ولائه من جند أبيه فتآمروا عليه وقتلوه سنة (٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م).

ويتضح مما سبق أن الأيوبيين في مصر والشام تشاغلوا عن دعم مركزهم في اليمن ركونًا إلى أبناء طغتكين، إلا أن تشاغلهم كاد يوتر العلاقة بينهم وبين الخلافة العباسية التي كان لدعمها لهم كبير الأثر في رفع مكانتهم وترسيخ نفوذهم على الأقاليم، فلما توالت الفتن في اليمن بعد مقتل المعز أرسل الملك الكامل بن العادل حملة إلى اليمن بقيادة ابنه المسعود، الذي - على الرغم من نجاحه في إعادة ضبط الأمور في اليمن - كان كمن أعدها ليتسلمها منه بنو رسول.

**٣- القضاء على بقايا الفاطميين في المنطقة.**

في سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧٢م) أقيمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله في مصر كإعلان بطي صفحة الخلافة الفاطمية التي نافست العباسيين على السيادة الروحية في بلاد الإسلام لأكثر من قرنين ونصف من الزمن، وتكمن أهمية المنافسة بين الخلافتين في أن كلاً منهما ادعت الحق في السيادة على ديار الإسلام، وكلاهما تبسط سلطانها على أكثر أجزاء بلاد

(١) ابن حاتم: السمط، ص٤٤- ٤٥؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٨٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٤٢٧.

الإسلام حيوية وأهمية على المستويات كافة السياسية والعسكرية والاقتصادية، فالعراق وما يتبعه من أقاليم المشرق وأعالي الفرات تدين بالولاء للعباسيين، في حين أن مصر وإفريقية واليمن تخضع لسلطان الفاطميين، أما بلاد الشام والحجاز فظلت تتجاذبهما القوتان بالأساليب السياسية تارة وبالقوة العسكرية تارة أخرى.

كما أن المنافسة الاقتصادية كانت في أوجها بين الطرفين للسيطرة على التجارة الشرقية التي ظلت تقصد بغداد برًّا وبحرًا عن طريق بحر فارس، إلى أن تمكن الفاطميون - بمساعدة دعاتهم في اليمن - من تحويل الطريق البحري إلى البحر الأحمر فمصر، مما أثر في الحركة التجارية في ممتلكات العباسيين، وفي ظل هذا الصراع بين القوتين تمكن الصليبيون من إقامة مملكتهم في قلب بلاد الإسلام، وبعد المحاولات الفاشلة من الطرفين كل على حدة للتصدي للصليبيين وكسرهم، صار واضحًا للعيان أنه يستحيل أن يتم ذلك إلا بتوحيد بلاد الإسلام تحت راية إحدى الخلافتين، الأمر الذي حسمه تزايد الاضطرابات في مصر الفاطمية وتدهور الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها، مقابل ظهور قوة عسكرية موالية للعباسيين أخذت على عاتقها مسؤولية تحقيق الوحدة الإسلامية تحت راية العباسيين وترسيخها والذود عنها؛ ليتمكن المسلمون من الوقوف صفًا واحدًا في وجه عدوهم.

ولكن القضاء على الخلافة الفاطمية لم يكن بالأمر السهل لا سيما أنها قد حكمت أكثر من قرنين ونصف من الزمان، تمكنت خلال تلك المدة من نشر دعاتها في أصقاع الأرض وإقامة نظام لإدارة أمور الدعوة ونشرها

ومتابعة الدعاة في الأقاليم والإشراف عليهم[١]، كما أنه خلال تلك المدة ارتبطت قوى وأطراف متعددة بالفاطميين حتى صاروا متعصبين للخلافة الفاطمية أكثر من الفاطميين أنفسهم، فكان من المتوقع أن يثير سقوط الدولة الفاطمية رد فعل قوي بين القوى الموالية لهم سواء في مصر أو خارجها.

وقد حدث ذلك بالفعل من خلال المؤامرة التي دبرها عددٌ من الموالين للدولة الفاطمية وعلى رأسهم عمارة الحكمي اليمني وغيره من رجال الدعوة والدولة الفاطمية، وقد بلغت تلك المؤامرة درجة عالية من الدقة والتخطيط حتى كادت تعصف بصلاح الدين ومن معه في مصر لولا أن تم كشفها وإعدام مدبريها سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)[٢]، وفي السنة التالية قامت في أسوان ثورة تزعمها رجل يعرف بكنز الدولة تمكن خلالها من مهاجمة قوص[٣] والفتك ببعض أمراء صلاح الدين الذي جرد عليه حملة تمكنت من القضاء عليه؛ بعدما كان يدعي "...أنه سيعيد الدولة الفاطمية و يدحض الأتابكية التركية..."[٤]، وقد استمرت محاولات الانقلاب والخروج على الأيوبيين من قبل أنصار الفاطميين حتى سنة (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)[٥].

---

(١) ابن فيض الله: الصليحيون، ص٢٢١؛ جب (سير هاملتون.آ.ر): صلاح الدين الأيوبي، حررها: يوسف إيبس، بيسان للنشر - بيروت، ط٢- ١٩٩٦م، ص١٢٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٩- ٢٤١؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٣) قوص (بالضم ثم السكون وصاد مهملة): مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط ١٢ يوما، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن؛ ياقوت: المعجم، ج٤/ ص٤١٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٣٠٤.

(٥) ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٢/ ص٣٤٧.

وبالنسبة إلى اليمن فإن دعاة الفاطميين فيها كانوا من أشد الإسماعيلية تعصبًا للفاطميين نظرًا لوحدة المصير التي تربط بين الطرفين كما بينا في موضع سابق من هذا الفصل، فبعد انفراط عقد الدولة الصليحية وانفصال السيدة بنت أحمد بدعوتها للطيب بن الآمر بأحكام الله، صار بنو زريع هم أصحاب الدعوة في اليمن لبقية خلفاء الفاطميين، وقد بلغ من تعصبهم للفاطميين أن اتخذوا سياسة معادية للزنكيين الذين دخلوا في سباق مع الصليبيين لأجل السيطرة على مصر منذ سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)، ولم يكن الفاطميون مرحبين بقوات نور الدين وإن جاءت لنصرتهم، وقد انسحب هذا الموقف بدوره على أنصار الفاطميين ودعاتهم في اليمن، فيقول شاعر بني زريع أبو بكر العندي[١] في قصيدة له يمدح فيها الداعي عمران بن محمد بن سبأ (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)[٢]:

يرد العدى بالرأي وهو مخيم كم من سكون فيه بطش حراك
سلت يد الأيام منه مهندًا متحكمًا في هامة الأتراك

ومادامت اليمن خالية من أتراك يكن لهم العداء فالمقصود إذن هم آل زنكي الأتراك، ومن المحتمل أن يكون بنو زريع طرفًا أساسيًا أو ثانويًا في

(١) أبو بكر بن أحمد العندي نسبًا، الأبيني بلدا، من قوم يسمون الأعنود منهم جماعة يسكنون أبين ولحج وعدن، ولد بأبين وكان أبوه من أعيانها وأهل الرأي فيها، وقد ظهرت عليه معالم النجابة منذ صغره، فلما أتم حفظ القرآن دخل عدن فقرأ فيها الفقه والأدب وعلم الحساب، ونظم ونثر وحاز فضلاً واسعًا، ثم ارتقت به المراتب عند بني زريع ووزرائهم حتى صار من خاصتهم ومستشاريهم، ودبج في مدحهم غرر القصائد، وهو الذي أرشد عمارة الحكمي إلى سلوك طريق الشعر والأدب بدل الفقه وقدمه إلى بني زريع، توفي سنة (٦٨٠هـ/ ١١٨٥م)؛ انظر: الجندي، السلوك، ج١/ ص٣٧٠- ٣٧٤.

(٢) عمارة: المفيد، ص٢٧٥.

المؤامرة التي دبرها عمارة ورفاقه، فقد كان وفاء عمارة للفاطميين هو ما دفعه للاشتراك في تلك المؤامرة - التي سنتناول موقفه منها في موضعه - التي دفع حياته ثمنًا لها، فيحرض توران شاه على المسير إلى اليمن ويطمعه في ملكها وخيراتها لينفرد المتآمرون بأخيه صلاح الدين في غيابه[١]، لكنه بذلك يعرض دولة بني زريع للهلاك في حين أنه يجدر به العمل على ضمان بقاء دولتهم للأسباب الآتية:

١- كونهم أصحاب الفضل الأول عليه عندما كان في اليمن ولم يزل يذكرهم بخير ويناصحهم حتى وهو في مصر[٢].

٢- أن دولة بني زريع في عدن وما يتبعها، ونظيرتها في صنعاء ومناطقها الدولة الحاتمية تعدان آخر الكيانات السياسية المستقلة للإسماعيلية في المنطقة، وبما أن لعمارة صلة مباشرة ببني زريع فمن الواجب عليه العمل على ضمان بقاء دولتهم واستمرارها؛ لأنها تمثل الحصن الأخير للفاطميين في المنطقة، والملجأ الذي قد يأوي إليه لو فشلت خطته وتمكن من الفرار، ولذلك فإنه من المحتمل أن يكون المتآمرون قد نسقوا مع بني زريع في اليمن - عن طريق عمارة - وأشركوهم في خطتهم، سواء بتحذيرهم ليتمكنوا من اتخاذ الاحتياطات اللازمة للصمود أطول مدة ممكنة في وجه توران شاه حتى ينفذ رفاقهم مؤامرتهم فتسقط دولة صلاح الدين وسيده نور الدين في مصر، ومن ثم يسقط في يد توران شاه ولا يجد بدًا من الانضمام إلى النظام الجديد أو الانسحاب، لا سيما أنه ثبت تاريخيًا

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٨٤.
(٢) عمارة: المفيد، ص١٥٢- ١٥٣؛ النكت، ص٣٣٣- ٣٣٤.

مناعة مدينة عدن حين وصل إليها توران شاه فقد كانت "...من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين..."[١]، مما يوحي بأن بني زريع كانوا مستعدين للصمود بوجه توران شاه لولا الخطأ الذي وقع فيه ياسر بن بلال المحمدي، وذلك حين خرج لقتال توران شاه فصارت المدينة مكشوفة حتى تمكن رجال توران شاه من التسلل إليها مخترقين قوات بني زريع وسقطت بيدهم المدينة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: "...وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم..."[٢]، وهكذا بات من الضروري القضاء على القوى الإسماعيلية في اليمن لأنها تشكل امتدادًا للدولة الفاطمية في مصر، وقد تصبح تجمعًا لبقايا الفاطميين في محاولة لإعادة إحياء دولتهم لا سيما أن اليمن كانت من أولى مراكز الدعوة الفاطمية في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، بل كانت مؤهلة لتكون مقر دولة عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية لولا أن الظروف دفعته لاختيار بلاد المغرب[٣].

ومن جهة أخرى فقد صار القضاء على النفوذ الإسماعيلي في اليمن ضرورة سياسية وجزءًا من استراتيجية تطويق مراكز الإسماعيلية في الشام، وبالذات تجمعات الحشاشين وقلاعهم المنيعة تمهيدًا للقضاء عليهم، فقد ذكر ابن المجاور أن بني زريع كانوا "...يؤدون الخراج إلى الخلفاء

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص ٢٣٨.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٣٨.
(٣) ابن فيض الله: الصليحيون، ص٣٩- ٤١؛ محمد حلمي محمد: مصر والشام والصليبيون، د.م، د.ط - ١٩٨٢م، ص١١٧- ١١٨.

الفاطميين... والملاحدة الذين هم ملوك [كرد كوه[١] وآلموت[٢] وهما حصنان على جبل مدور لهم أي للملاحدة يأخذون الخراج من جبل السماق الذي لهم بأعمال الشام..."[٣]، وتكمن الخطورة هنا في أن تلك الجماعة الخطيرة التي أثار اسمها الرعب ونشرت خناجرها الخوف في المنطقة كانت لا تخضع لأي سلطان سياسي من القوى المحيطة بهم ماعدا النفوذ الروحي للخلفاء الفاطميين؛ ماداموا يوالونهم ويدعمونهم وإلا كان مصيرهم كمصير الخليفة الآمر بأحكام الله الذي اغتالوه سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، مما جعل وجودهم يعتمد على الأموال التي تصلهم سواء بالترغيب أو الترهيب أو من القوى السياسية التي ترتبط بالحشاشين بفكر واحد هو الفكر الإسماعيلي، وهذا هو الرابط بين بني زريع والحشاشين، فبنو زريع هم دعاة الفاطميين في اليمن ومتابعون لهم في توجهاتهم وسياستهم، فإذا كانوا يمدون الحشاشين بالمال فهو "...لأجل المذهب لأن القوم إسماعيلية... وهم على عقيدة واحدة..."[٤].

وقد بلغ من نقمة الحشاشين - كبني زريع - على صلاح الدين لإسقاطه الدولة الفاطمية أن بادروا لتلبية نداء المتآمرين في القاهرة ضد صلاح الدين، فكان الحشاشون من بين الأطراف التي أشركها معهم عمارة

(١) كردكوه: قلعة للملاحدة بينها وبين الدامغان مسيرة يوم واحد؛ ياقوت: المعجم، ج٣/ ص٤٣٣.
(٢) آلموت: قلعة حصينة في ناحية من نواحي قزوين، ومعنى آلهْ موُت بلسان الديلم (تعليم العُقاب)، وكانت هذه القلعة أمنع قلاع الحشاشين على الإطلاق وأهمها؛ انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٦/ ص٤٠٣.
(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٢٦- ١٢٧.
(٤) ابن المجاور: المصدر نفسه، ص١٢٧.

وأصحابه في مؤامرتهم[١]، كما توالت محاولاتهم لاغتيال صلاح الدين التي كادت تنجح لولا لطف الله به[٢]، وعمومًا فقد كان فتح اليمن نصرًا استراتيجيًا على المنظومة الإسماعيلية بمجموعها، مما أذن بانحسار نفوذهم في المناطق كافة بعد القضاء على أهم قوتين سياسيتين تمثلان الإسماعيلية في المنطقة الدولة الفاطمية والدولة الزريعية[٣].

ويتضح مما سبق أن حملة اليمن كان ترمي من ضمن أهدافها إلى القضاء على بقايا الفاطميين في المنطقة وضرب تجمعاتهم؛ لأن في ذلك ضمانًا لأمن دولة صلاح الدين، وحتى لا يشكلوا تهديدًا سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا للوحدة الإسلامية[٤].

**٤- إحكام السيطرة الأيوبية على البحر الأحمر:**

اكتسب البحر الأحمر أهمية بالغة منذ أيام الفراعنة وذلك للمزايا السياسية والاقتصادية والعسكرية التي يمتع بها من كانت له اليد الطولى في السيطرة والتحكم بمنافذ ذلك البحر وشواطئه، وهو ما بيّناه سابقًا من خلال تسابق الدول والإمبراطوريات للسيطرة عليه في التاريخ القديم، أما في

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٨٨- ٢٨٩.
(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٦٠؛ ابن شداد: النوادر، ص٥٢.
(٣) وبلغ من قوة ذلك النصر الذي حققه صلاح الدين وانعكاساته أن منحه الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله لقب "الملك الناصر خليل أمير المؤمنين، وسند الخلافة العباسية، وهادم الشيعة بمصر واليمن"؛ انظر: سالم (السيد عبدالعزيز): وسحر السيد عبدالعزيز: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - ١٩٩٩م، ص٧٨.
(٤) الشيال (جمال الدين): تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف - القاهرة، د.ط - د.ت، ج٢/ ص٣٠؛ جب: صلاح الدين الأيوبي، ص١٢٢.

العصر الإسلامي فقد حرصت الدول الإسلامية على جعله بحرًا إسلاميًا[١]؛ نظرًا لأهميته الدينية والسياسية والاقتصادية التي جاءت من الآتي:

١- كون سواحل الحرمين الشريفين تقع عليه مما يجعل من الضروري تأمين الحماية اللازمة لتلك السواحل والحجاج القادمين إليها عن طريق البحر[٢].

٢- إن من يتمكن من السيطرة على البحر الأحمر يتاح له إمكان مد نفوذه على شاطئيه الإفريقي والآسيوي، سواء باستخدام القوة العسكرية أو باصطناع حلفاء وموالين من القوى السياسية المحلية، وقد ساعدت هذه السيطرة الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور في القضاء على ثورة إبراهيم ومحمد النفس الزكية[٣] حين أمر بطمر قناة أمير المؤمنين[٤]، فقطع بذلك تدفق القمح وغيره من المواد الغذائية إلى الحجاز مسببًا حصارًا اقتصاديًا

(١) سالم: البحر الأحمر، ص١٩.
(٢) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٥٩.
(٣) ثورة النفس الزكية: هي ثورة أشعلها العلويون ضد العباسيين، وكانت بقيادة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ المعروف بالنفس الزكية، وكانوا يدبرون لها منذ قيام الدولة العباسية، ولما أحسوا بتزايد وطأة المنصور ورقابته عليهم وعلى أنصارهم أعلنوا الثورة سنة (١٤٦هـ/ ٦٤ ٧م) في الحجاز والبصرة، فانصرف المنصور بكليته إلى القضاء على تلك الثورة، وجرد إليهم الجيوش التي تولت حربهم والقضاء عليهم؛ انظر: الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط٥- د.ت، ج٧/ ص٥٥٢- ٦٠٩.
(٤) قناة أمير المؤمنين: قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر، وكانت موجودة زمن الفراعنة ثم طمرت، حتى جاء الإسلام فأمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ بإعادة حفرها لأجل ضمان تدفق الطعام بأسرع وقت إلى الحجاز الذي يعاني من مجاعة عام الرمادة سنة (١٨هـ/ ٦٣٩م)، فسميت تلك القناة بقناة أمير المؤمنين عمر ﷺ تيمنًا به؛ انظر: جرادات، المرجع السابق، ص٥٩.

أسهم في خنق تلك الثورة والقضاء عليها[١]، كما تمكن الفاطميون إثر استيلائهم على مصر من بسط سيطرتهم على البحر الأحمر، ومن ثم دعم دعاتهم في اليمن الذين أقاموا دولة لهم هي الدولة الصليحية، التي استطاع الفاطميون بمساعدتها انتزاع الحجاز من العباسيين[٢]، ولا بد من الإشارة إلى أن نشاط دولة الحبشة في المنطقة أخذ في الانكماش بعدما طرد المسلمون البيزنطيين من بلاد الشام ومصر، مما أفقدها الحليف الذي تستند إليه في محاولاتها التوسعية في المنطقة باسم نشر المسيحية، فلم يتعد نشاطها سوى بعض أعمال القرصنة في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين[٣].

وهكذا بات من الضروري لمن أراد إحكام السيطرة على البحر الأحمر أن يتحكم بمرافئه الشمالية ومدخله الجنوبي، وهو الأمر الذي سعى إليه الصليبيون، منذ أن استولى (بلدوين الأول) على ميناء أيلة فصارت لهم قاعدة في الساحل الشمالي للبحر الأحمر كخطوة تمهيدية للتوسع فيه والتحكم بمرافئه المهمة (مثل عدن) ومنافذه، وقد فطن صلاح الدين إلى خطورة ذلك المخطط فبادر إلى استعادة أيلة وقلعتها من الصليبيين سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) بعد ستة وخمسين عامًا من الاحتلال، وكان ذلك إجراءً تكتيكيًا حُرم بواسطته الصليبيون من المنفذ الوحيد لهم على البحر الأحمر[٤]، ويبدو أن هذه

(١) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٥٩.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص٥٨؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص١٦١.
(٣) حوات (محمد علي): مضيق باب المندب أهميته الاستراتيجية وتأثيرها على الأمن القومي العربي، مكتبة مدبولي - القاهرة، د.ط - د.ت، ص١٧.
(٤) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٣٤؛ جرادات: المرجع السابق، ص٧٦.

الضربة نبهت الصليبيين إلى إهمالهم تنفيذ مخططات بلدوين الأول في ذلك البحر، إذ لو لقيت أيلة وقلعتها اهتمامًا كافيًا لما تمكن صلاح الدين من استعادتها. تلا ذلك نشاط عسكري توَسعي لصلاح الدين في النوبة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، ثم تمكن توران شاه في العام التالي من ضم اليمن إلى دولة أخيه، كل ذلك والصليبيون يرون تعاظم نفوذ صلاح الدين وسلطانه في المنطقة حتى صار المتحكم الوحيد بالبحر الأحمر، مما دفع (أرناط) إلى محاولة هدم تلك السيطرة الإسلامية على البحر الأحمر واختراقها، فشن هجومه البحري سنة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) حيث حاول إعادة احتلال أيلة وقلعتها[١]، وكان من أهدافه خوض ذلك البحر وصولاً إلى عدن لتتحقق له السيطرة على مدخله الجنوبي ومرافئه الشمالية[٢]، ويتم له بذلك إغلاقه في وجه الملاحة الإسلامية[٣].

إلا أن (أرناط) ارتكب خطًا فادحًا عندما قام بمهاجمة الموانئ الإسلامية - جريًا على عادته في السلب والنهب - وكذلك مهاجمة سواحل الحجاز ومن ثم محاولة الوصول إلى المدينة المنورة، الأمر الذي لفت إليه الأنظار حتى تم القضاء على محاولته في وقت كان من الممكن أن يحقق فيه السيطرة على عدن، ومن ثم المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، نظرًا لانشغال نواب توران شاه في اليمن بالصراع فيما بينهم غافلين عن ذلك الخطر الداهم، ولم يكن بالضرورة أن تستولي مراكب (أرناط) على عدن بل

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٩٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص١٣٤.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٦١٩.
(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج٢/ ص٦١٩؛ ربيع البحر الأحمر، ص١٠٧- ١١١.

كان يكفي أن يحتل إحدى جبالها المطلة على الميناء ويقيم عليه قلعة - كما فعلوا في جزيرة فرعون - ولعل ذلك هو السبب في إرسال صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين على رأس حملة سنة (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م) لإعادة ضبط أوضاع الإدارة الأيوبية في اليمن تحت قيادته[١].

وهكذا تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على البحر الأحمر، وصارت الأماكن المقدسة والمدخل الجنوبي لذلك البحر فضلا عن مرافئه الشمالية؛ كلها صارت تابعة لصلاح الدين وتحت حمايته[٢]، فقطع بذلك أي أمل للصليبيين في اختراق الخطوط الخلفية للمسلمين وضربهم في مقدساتهم وتجارتهم[٣]، فضلا عن ضمان سكون الحبشة وعدم تسرب الفكرة الصليبية إليها مما قد يسبب لصلاح الدين كثيرًا من المتاعب التي هو في غنًى عنها[٤]، إذ لو تمكن الصليبيون من اختراق العزلة التي يفرضها الحصار الإسلامي على الحبشة، وهتك حرمة البحر الأحمر وكونه بحيرة إسلامية فإن ذلك قد يؤدي إلى خروج الحبشة عن عزلتها وهو الأمر الذي تحقق في القرن التالي[٥].

ومن ناحية أخرى فإن سيطرة الأيوبيين على البحر الأحمر وبالذات مدخله الجنوبي امتدت بفعل المجال الحيوي لليمن إلى المحيط الهندي

(١) عبدالعال: الأيوبيون، ص١١٧- ١١٩؛ العسيري: الحياة السياسية، ص٦٦- ٦٧.
(٢) بروي (إدوار) وآخرون: تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى): عويدات للنشر- بيروت، د.ط - ٢٠٠٣م، ص٣٤٣.
(٣) عبدالعال: الأيوبيون، ص١١٧- ١١٩؛ العسيري: المرجع السابق، ص٦٧.
(٤) عبدالعال: المرجع نفسه، ص١١٩؛ العسيري: المرجع نفسه، ص٦٧- ٦٨.
(٥) عاشور: الحركة الصليبية: ج٢/ ص٩٥٥- ٩٥٩.

الذي تمكنت البحرية الأيوبية من تحقيق السيادة عليه[١]، وهو ما يبرر ما ذكره صلاح الدين من امتلاكه " . . .بلاد الهند وما يتبعها . . ."[٢] في رده على رسالة الإمبراطور فردريك الأول على الرغم من أن نفوذه الفعلي لم يصل إلى الهند.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٦٦؛ السروري: الحياة السياسية، ص٤٢٦.
(٢) مجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج١/ ص ٦٣.

## المبحث الثالث

### موقف اليمن السياسي خلال الحكم الرسولي

تولى نور الدين عمر بن علي بن رسول حكم اليمن إثر وفاة آخر ملوك بني أيوب على اليمن الملك المسعود بن الكامل، وذلك بصفته نائبًا للأخير على اليمن، فتمكن في بضع سنوات من تنحية رجال الأيوبيين المخلصين عن مناصبهم وإحلال من يثق بولائه مكانهم، وكان لحنكته السياسية وكفايته الإدارية والعسكرية دورٌ كبير في تمكنه من إخضاع المناوئين لسلطانه، وتوسيع دولته مؤسسا أسرة حكمت اليمن زهاء قرنين وثلث من الزمان (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م)، ويهمنا هنا المدة التي حكموها من سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) حين تمكن المماليك من تطهير بلاد الشام نهائيًا من الوجود الصليبي[١]، وهي المرحلة التي تعاقب فيها على حكم الدولة الرسولية اثنان من سلاطين بني رسول: السلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م - ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، والسلطان المظفر يوسف بن عمر (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م -٦٩٤هـ/ ١٢٩٦م)، عاشت اليمن خلالها أزهى فترات تاريخها في العصر الإسلامي، متمثلة في قيام دولة مركزية حملت على عاتقها مسؤولية قيادة اليمن سياسيًا

(١) رغم نجاح المماليك في طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام فإن هجماتهم ظلت مستمرة منطلقين من قواعدهم الجديدة في جزر قبرص ورودس ومالطة في البحر المتوسط، التي انتقلت إليها مؤسساتهم الدينية والعسكرية مما جعل الحرب الصليبية مستمرة ضد المسلمين حتى تسلم الأسبان والبرتغال الراية الصليبية في العصر الحديث.

وعسكريًا واقتصاديًا وثقافيًا، لا سيما حكم السلطان المظفر وأبنائه من بعده، وسنتناول فيما يلي مظاهر علاقة بني رسول بالقوى المجاورة لهم ومدى تأثرها وتأثيرها في الأحداث التي مرت بها المنطقة، وهل حالت الخلافات السياسية بين بني رسول والقوى السياسية في مصر والشام من دون اتخاذ سلاطين الدولة الرسولية موقفًا مساندًا لإخوانهم في جهادهم ضد الصليبيين؟

**أولاً- علاقة بني رسول السياسية بمصر وبغداد:**

**أ - علاقة بني رسول بمصر:**

لم يلق استقلال بني رسول بحكم اليمن ترحيبًا من الأيوبيين في مصر والشام، فقد عد هؤلاء اليمن جزءًا لا يتجزأ من دولتهم التي خلفها لهم صلاح الدين، على الرغم من أنها ظلت تحكم من قبل بيت طغتكين بن نجم الدين أيوب، الذين كانت علاقتهم ببيت العادل الأيوبي جيدة - باستثناء المعز إسماعيل - إذ لم يفكرالعادل في انتزاع اليمن منهم رغم تخلخل الأوضاع فيها، حتى إنهم منعوا أي فرد من أفراد البيت الأيوبي من الذهاب إلى اليمن - ماعدا سليمان بن شاهنشاه الذي تمكن من الوصول إلى اليمن وتولى حكمه - لكي لا يحدثوا اضطرابًا في علاقتهم بالأيوبيين هناك[1]؛ أو لأنهم كانوا يعدون العدة للحلول محل بيت طغتكين، وهو ما تم بالفعل على يد الملك المسعود بن الكامل في حملته سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٤م).

ولذلك لما ترامت إلى مسامع السلطان الكامل أنباء استقلال نور الدين عمر بن رسول بحكم اليمن استنكر ذلك، ولكن انشغاله بالصراع مع إخوته

(١) أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل): تراجم رجال القرنين السادس والسابع، تصحيح: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، دار الجيل - بيروت، ط٢- ١٩٧٤م، ص٨٣.

وأبنائهم[١] وتطور الأحداث عند الصليبيين بتدخل الإمبراطور فريدريك بربروسا (٦١٨هـ/ ١٢٢٠م - ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) الذي دخل مع الكامل في مفاوضات مهمة حول بيت المقدس استمرت طوال المدة من (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م - ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) مقابل إقامة علاقات صداقة ودبلوماسية بين الطرفين[٢]، وأخيرًا فإن هجمات الخوارزمية[٣] المدمرة شغلت الملك الكامل وابنه الصالح أيوب من بعده عن أمر اليمن، في وقت كانت قوة السلطان نور الدين عمر بن رسول تتعاظم مضيفًا إلى ملكه المزيد من المدن والحصون، بل بلغت به همته أن عزم على ضم مكة المشرفة إلى دولته، وهو أمر أدى إلى وقوع الصدام مع الأيوبيين في مصر، فأرسل في سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) حملة إلى مكة[٤] كانت بداية الصدام مع الأيوبيين حول السيطرة على مكة

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٦٤٧، ٦٥٠؛ الذهبي: العبر، ج٣/ ص١٩٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص١٢٦.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم١/ ص٣٢٦- ٣٣٠؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١١٧- ١١٩.

(٣) الخوارزمية: نسبةً إلى الدولة الخوارزمية في آسيا الوسطى التي دمرها جنكيز خان سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٢م)، فاضطر آخر أمرائها جلال الدين بن خوارزم شاه إلى الفرار إلى الهند ومنها إلى بلاد فارس، حيث التف حوله بقايا مماليك أبيه من الأتراك الذين عرفوا بالخوارزمية، وقد أقام جلال الدين دولته في بلاد فارس، واتخذ أصبهان عاصمةً له، إلا أن الخوارزمية بدلاً من أن يتصدوا للمغول قاموا بمهاجمة الدول الإسلامية المجاورة لهم، وبعد مقتل زعيمهم جلال الدين انساح الخوارزمية في البلاد الإسلامية يعرضون خدماتهم العسكرية لمن يدفع لهم، إلى أن تمكن الأيوبيون من كسرهم وتفريق شملهم سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)؛ انظر: عاشور، الحركة الصليبية، ج٢/ ص٧٨٩، ٧٩٩، ٨١٢، ٨٢٥.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص١٩٢؛ العقود، ج١/ ص٤٩؛ إلا أن صاحب سمط النجوم يذكر أن الحملة كانت سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)، والأرجح هو ما ذكره الخزرجي؛ انظر: العاصمي (عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي): =

المشرفة، واستمرت هذه الحملات من السلطان نور الدين عمر والحملات المضادة من الأيوبيين على مكة إلى سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) حين تمكن السلطان المنصور من دخول مكة بنفسه على رأس جيشه وإجلاء جند الأيوبيين عنها - بعد أن استمال معظمهم بالمال - وكذلك الاستيلاء على ينبع قاعدة الإنزال للجنود الأيوبيين في الحجاز وتدميرها[١]، فصفت مكة لبني رسول، إذ انشغل خصومهم الأيوبيون بمشاكلهم الداخلية والصراع فيما بينهم، ثم الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م - ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وأخيرًا سقوط دولتهم في مصر وقيام دولة المماليك التي حملت على عاتقها مسؤولية مواصلة الجهاد ضد الصليبيين والمغول، وقد تزامن ذلك مع مقتل السلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول على يد مماليكه سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) وتولي ابنه المظفر يوسف الحكم خلفًا لأبيه.

وعلى الرغم من أن المماليك قد ورثوا ممتلكات الأيوبيين في مصر والشام فإن سياستهم مع الدولة الرسولية كانت مختلفة؛ لأن الأيوبيين كانوا ينظرون إلى بني رسول بوصفهم متمردين خرجوا عن طاعة أولياء نعمتهم بني أيوب أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام واليمن والحجاز بموجب التقليد الممنوح من قبل الخلافة العباسية إلى صلاح الدين وذريته وأهل بيته من بعده[٢]، أما المماليك فقد كانوا هم أنفسهم يعانون من

---

= سمط النجوم العوالي، تح: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ط - ١٩٩٨م، ج٤/ ص٢٣٢.

(١) الخزرجي: العسجد، ص٢٠١؛ العقود، ج١/ ص٦٩؛ العاصمي: المصدر السابق، ج٤/ ٢٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٣٨٥.

مشكلة شرعية دولتهم كونهم مماليك لسلاطين الأيوبيين في مصر فكيف يطمعون أن تعترف الخلافة العباسية بدولتهم ولما تتضح ملامحها بعد، لا سيما مع وجود ملوك الأيوبيين في الشام ومحاولاتهم المتكررة لاسترداد مصر، أما بنو رسول فقد كانوا يرون أنهم أعلى شأنًا من المماليك فهم - بنو رسول - أمراء أحرار خدموا في جيش صلاح الدين، أما المماليك فهم مجهولوا النسب جلبوا من أصقاع الأرض وصاروا ملكًا للسلطان، كما أن ظهور خطر المغول المدمر جعل اهتمام المماليك منصبًا على النهوض بالجهاد ضد أعداء الإسلام من المغول والصليبيين، الأمر الذي اكتسبوا منه رضا جمهور الناس بحكمهم.

وأما من جهة السلطان المظفر يوسف بن عمر الذي امتاز بموهبة سياسية فائقة، حتى نعاه أحد خصومه وهو الإمام مطهر بن يحيى بقوله: "مات التبع الأكبر مات معاوية الزمان مات من كانت أقلامه تكسر رماحنا وسيوفنا"[(١)]، فإنه اتخذ سياسة مغايرة لسياسة والده المتشددة تجاه الحجاز، فقد كانت الحملات التي أرسلها - رغم طول مدة حكمه - أقل عددًا من الحملات التي أرسلها والده[(٢)]، وحتى عندما خضعت مكة المشرفة لسلطانه لم يكن يظهر أي نوع من النشاط الاستفزازي للمماليك تقديرًا لدورهم في الذود عن ديار الإسلام ضد المغول والصليبيين، فمن ذلك ما حدث في سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) حين خرج السلطان المظفر للحج، فلما استقر بمكة وزع الصدقات وأدى المناسك فلما وصل إلى عرفات وجد رايات سلطان المماليك - الظاهر بيبرس - منصوبةً فحرضه أحد أمرائه على تنحية رايات

(١) ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٣٥. (٢) الخزرجي: العسجد، ص٢٢٧.

صاحب مصر ونصب راياته بدلاً منه، فما كان من السلطان المظفر إلا أن قال: "أتراني أؤخر أعلام ملك كسر عساكر التتر بالأمس، أو أقدم أعلامي لأجل حضوري ومغيبه، لا أفعل هذا أبدًا"[١].

لقد كان موقف السلطان المظفر في غاية التعقل والكياسة فقد أظهر الاحترام والتقدير لمن دافعوا عن ديار الإسلام وحموا بيضته، كما جنب الأمة مخاطر أزمة سياسية قد يعقبها صدام مسلح بين القوتين في وقت تكالب فيه الأعداء على الأمة من كل جانب، إلا أن ذلك لا يعني تخلي السلطان المظفر عن الحجاز للمماليك، إذ ظل السلطان المظفر يتعاهد بيت الله الحرام بالصدقات والأعطيات، والكساء للكعبة المشرفة والحجرة الشريفة سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٢م)، وفي سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م) أرسل السلطان المظفر من قبله من قام بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة[٢]، وموقفه مشهور من الحريق الذي أتى على المسجد النبوي سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م)، إذ بادر إلى إرسال الصناع والفعلة ومواد البناء، وصنع منبرًا للمسجد ظل يخطب من فوقه حتى استبدله الظاهر بيبرس بمنبره سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)[٣].

وعمومًا فقد كانت سياسة السلطان المظفر تجاه الحجاز خاصة وتجاه المماليك عامة تتسم بالمرونة وتحكيم العقل، إذ تجنب اتخاذ أي موقف قد

(١) الخزرجي: المصدر السابق، ص٢٣٨.
(٢) الخزرجي: العقود، ج١/ ص١٤١، ١٦٩.
(٣) السخاوي (الإمام شمس الدين محمد بن عبدالرحمن): التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١- ١٩٩٣م، ج١/ ص٣٣؛ اليافعي (أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، د.ط - ١٤١٣هـ، ج٤/ ص١٣٥.

يؤدي إلى إثارة التوتر السياسي بين الجانبين، ولا أدل على ذلك من قيام المظفر بضبط النفس إزاء تغيير الظاهر بيبرس لمنبره الذي وضعه للمسجد النبوي، أو عند قدوم الظاهر بيبرس إلى الحجاز حاجًا سنة (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م)؛ وإرساله إلى المظفر رسالة يقول فيها: "سطرتها من مكة المشرفة... إن الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده، ويبذل نفسه في الذب عن حوزة الدين، فإن كنت ملكًا فاخرج والتق التتار"[(١)]، وقد آتت سياسته ثمارها إذ إنه "...في غالب سلطنته كان يخطب له بمكة..."[(٢)]، وفي الحقيقة أن سياسة السلطان المظفر تجاه الحجاز لم تكن سببًا في أي مظهر من مظاهر التوتر النسبي بين الرسوليين والمماليك، بل كانت علاقته بالخلافة العباسية هي السبب.

**ب - علاقة بني رسول ببغداد:**

في سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) وصلت سفارة من اليمن إلى بلاط الخليفة العباسي المستنصر بالله تحمل هدية عظيمة إلى الخليفة ومعها كتاب من نور الدين عمر بن علي بن رسول يطلب فيه من الخليفة النيابة بالسلطنة على اليمن[(٣)]، وتلك خطوة تنم عن الدهاء والحنكة السياسية، إذ إن دعاوى الأيوبيين في اليمن ظلت تستند إلى صفة شرعية وهي التقليد الذي منحته

(١) المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح وتعليق: محمد مصطفى زيادة، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط٢ - ١٩٥٦م، ج١/ قسم الثاني، ص٥٦٣؛ ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم - بيروت، ط٥ - ١٩٨٤م، ج٥/ ص٤٤٧.

(٢) العاصمي: سمط النجوم، ج٤/ ص٢٣٨.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص١٩٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٠٣.

الخلافة لصلاح الدين بحكم مصر والشام واليمن، فإذا أراد نور الدين أن يقطع عليهم ذلك السبيل ويقضي على مطالبهم باليمن فعليه أن يطلب التولية على اليمن من صاحب الحق في ذلك وهو الخليفة العباسي نفسه، وقد خدمت الظروف نور الدين عمر، إذ جاء طلبه في وقت كان الخليفة المستنصر مستاءً فيه غاية الاستياء من الأيوبيين، ومن السلطان الكامل تحديدا، لا سيما إثر معاهدة يافا المهينة سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) التي سلم الكامل بموجبها بيت المقدس إلى الإمبراطور فريدريك بربروسا، الأمر الذي أثار موجة من السخط والاستياء في ديار الإسلام كافة[١].

وعلى كل حال فقد استجاب الخليفة لطلب نور الدين، وأرسل إليه بالتشريفة والتقليد والخلع عن طريق البحر، وجرت مراسيم إعلان التقليد بالنيابة للسلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول بحكم اليمن في قصرالأخير بالجَند[٢].

وكانت هذه السياسة هي القاعدة التي سار عليها ابنه المظفر وذريته من بعده تجاه الخلافة العباسية حتى بعد سقوطها على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، ففي سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) قتل السلطان المنصور علي على يد مماليكه، وشغل ابنه المظفر بحروب عنيفة لاستعادة ملك أبيه، ومع ذلك نجده يرسل سفارة إلى الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) يحملون إليه كتابًا من المظفر يوسف يصف فيه الأوضاع في اليمن وخروج

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٧٩٨- ٨٠١؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم١/ ص٣٣١- ٣٣٢.
(٢) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٥٥.

الإمام أحمد بن الحسين وأنه ادعى الخلافة، وكيف تمكنت قوات المظفر من كسره واستعادة صنعاء منه، ويطلب من الخليفة منحه التقليد بالنيابة على حكم اليمن[١]، فأرسل إليه المستعصم بالله الخلع والتقليد مع رسوله الذي يحمل كسوة الكعبة سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥٢م)، وقد واصل رحلته إلى اليمن حيث التقى المظفر، وقلده نيابة حكم اليمن، وسلمه كتابًا من الخليفة يأمره فيه بالقضاء على الإمام أحمد بن الحسين[٢].

وقد ظل السلطان المظفر على ولائه للخليفة المستعصم بالله حتى بعد سقوط بغداد بيد المغول، التي عدت أكبر كارثة حلت بالمسلمين، إذ إنه لأول مرة في تاريخ الإسلام تجتاح قوة غير إسلامية معادية دار الخلافة، وتقتل خليفة المسلمين، الأمر الذي أثار موجة من اليأس بين المسلمين، ولم يمنع من استمرار الانتكاسة إلا تمكن المماليك من قهر المغول في عين جالوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، فأعادوا بذلك الأمل للأمة بالصمود والتصدي للمغول والصليبيين، ولم يتوقف الأمر بالمماليك عند تحقيق الانتصارات العسكرية، بل عزم الظاهر بيبرس على إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة؛ ليحقق بذلك هدفين رئيسين:

- التفاف المسلمين في الأقطار كافة حول القاهرة، وتوحدهم تحت رايتها، حيث صارت مقر الخلافة العباسية، وقلب ديار الإسلام.

- إضفاء الشرعية على حكمه ليقوى بذلك موقفه أمام بقايا البيت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص١٨٤؛ الخزرجي: المصدر السابق، ج١/ ص٩٩.

(٢) الخزرجي: العسجد، ص٢١٩- ٢٢٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣١٨.

الأيوبي في بلاد الشام، وبذلك تمكن المماليك من الحصول على صفة الشرعية لدولتهم؛ كونهم حماة ديار الإسلام، ورعاة الخلافة العباسية، والمفوضين عنها بحكم البلاد[١].

إلا أن السلطان المظفر كان له موقف مختلف تمامًا من سقوط الخلافة العباسية ببغداد عن موقف المماليك، إذ واصل الخطبة للخليفة المستعصم بالله بعد مقتله، وكذلك ضرب السكة باسمه، وصار ذلك نهجًا سياسيًا ثابتًا في دولة بني رسول استمر حتى سنة (٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م)[٢]، على الرغم من وجود الخليفة العباسي الذي أقامه المماليك في القاهرة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)[٣]، الأمر الذي ظل يهدد العلاقات بين المماليك والرسوليين طوال السنوات التالية، وقد سكتت المصادر عن ذكر سبب ذلك الموقف الذي اتخذه السلطان المظفر من الخلافة العباسية، والذي وصل ببعض المؤرخين إلى إسباغ لقب خليفة على السلطان المظفر[٤]، إلا أنه من المرجح أنهم استندوا في ذلك إلى التقليد الممنوح من آخر خلفاء بني العباس الشرعيين في نظر بني رسول.

---

(١) الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج٢/ ص١٣٢- ١٣٣؛ العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص١٦٨.

(٢) الشميري (فؤاد عبدالغني محمد): تاريخ اليمن سياسيًا وإعلاميًا من خلال النقود العربية الإسلامية، وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، د.ط - ٢٠٠٤م، ص١٤٣- ١٤٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٣٤؛ السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة - القاهرة، ط١- ١٣٧١هـ، ج١/ ص٤٧٧.

(٤) الخزرجي: العسجد، ص٢٧٢؛ العقود، ج١/ ص٢٥٤، ٢٧٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٣٤.

وعمومًا فإن هذا الإجراء الذي اتخذه السلطان المظفر دعم موقفه بشكل فعال أمام دعاوى أئمة الزيدية، الذين صارت حجتهم أقوى بعد زوال الخلافة العباسية التي كان معظم المسلمين يدينون لها بالولاء، فصار لزامًا على السلطان المظفر أن يقطع الطريق عليهم بإبقاء الخطبة للخليفة المستعصم بالله وضرب السكة باسمه، فضمن بذلك أمرين:

- عدم الإتاحة لدعوة الزيدية بالخلافة بأن تنتشر بين أهل اليمن بعد مقتل خليفتهم.

- ضمان عدم التبعية للمماليك والخليفة الذي نصبوه في القاهرة، حيث إنه لا يحتاج إلى شرعيتهم المزعومة؛ كونه يحمل تقليدًا من المستعصم بالله[١].

**ثانيًا: المراسلات:**

إن تجاور الدولتين الرسولية والمملوكية، وسيطرة كل منهما على أحد ساحلي البحر الأحمر؛ حتم قيام علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية بين البلدين، في ظل حكومتين قويتين على الصعيدين الداخلي والخارجي، وقد ذكرت المصادر التاريخية قيام اتصال بين الطرفين، بل حفظت لنا عددًا من نصوص الرسائل (الكتب) التي جرى تبادلها بين السلطان المظفر يوسف بن عمر من جهة وسلاطين الدولة المملوكية من جهة ثانية، وكان أبرز ما تناولته تلك المراسلات (فيما يتعلق بالجهاد):

---

(١) الشميري: المرجع السابق، ص١٤٤؛ نقلاً عن الزيلعي (أحمد عمر)، دراهم رسولية مظفرية نقش عليها اسم الخليفة المعتصم بالله بعد وفاته، مجلة اليرموك للمسكوكات - جامعة اليرموك، إربد - ١٩٩٣م، مج٥/ ص٣١- ٣٢.

١- سوق البشرى إلى أهل اليمن بالانتصارات التي يحققها المسلمون في مصر والشام ضد أعداء الأمة من الصليبيين والمغول، الذين أقاموا حلفًا مع الصليبيين بقصد حصر المسلمين بين قوتين إحداهما من الشرق والثانية من الغرب وتوحيد قواهما في مواجهة قوة المماليك الضاربة[١].

٢- حث حكام اليمن على مد يد العون لنصرة إخوانهم في جهادهم ضد العدو والذود عن ديار الإسلام، معرضين بما تملكه اليمن من ثروات مادية وبشرية، وقد يصل الخطاب أحيانًا إلى مستوى التقريع والعتاب على تباطؤ حكام اليمن في نصرة إخوانهم، وتارةً يستقيم الخطاب إلى حوار ودي حميم.

وتخلل تلك المراسلات تبادل للهدايا بين الجانبين تعبيرًا عن علاقة حسن الجوار، وكانت تلك الهدايا تتنوع بين الخيل والسلاح والتحف الفنية النادرة (الذخائر) أو الحيوانات البرية، فضلا عن أنواع من السلع الشرقية كالعود والعنبر والبهار وغيرها من أطايب الهند.

ويجب الإشارة إلى أن معظم تفاصيل تلك السفارات والمراسلات بين الجانبين وصلتنا من مؤرخي مصر والشام من أمثال ابن كثير، وابن تغري بردي، والعيني، والقلقشندي، في حين ران الصمت على المصادر اليمنية، فلم تذكر تلك السفارات إلا مرورًا عابرًا من دون التطرق إلى تفاصيل ما دار فيها، أو ما حمله الرسل معهم، أو حتى التدقيق في تواريخها للتحقق من

(١) يوسف (جوزيف نسيم): العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة)، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، د.ط - د.ت، ص٢٨٦، ٢٥٣-٢٦٣؛ العريني (السيد الباز): المغول، دار النهضة العربية - بيروت، د.ط - ١٩٨١م، ص١٩٤- ١٩٧.

المرسل ومن عاصره، فعلى سبيل المثال يذكر الخزرجي طرفًا من رسالة أرسلها المظفر إلى الظاهر بيبرس بخصوص طلب أطباء من مصر للقدوم إلى ظفار الحبوضي التي فتحها المظفر ووجدها موبوءة[١]، مع أنه من الثابت تاريخيًا أن فتح ظفار الحبوضي كان سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٨٠) أي بعد سنتين من وفاة الظاهر بيبرس، ولكن ذلك لا يعني خلو المصادر الأخرى من بعض الالتباسات، فقد أورد القلقشندي نص رسالة ذكر أنها أرسلت من السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل عين جالوت إلى السلطان المنصور (صاحب اليمن) - يقصد نور الدين عمر بن رسول - يسوق له البشرى بالنصر في عين جالوت مع وصف مسهب لأحداث المعركة وما بعدها، في حين أن السلطان المنصور قتل قبل عين جالوت بإحدى عشرة سنة[٢]، فتكون الرسالة قد أرسلت - إن صحت الرواية - إلى السلطان المظفر يوسف بن عمر وليس إلى والده.

وسنتناول فيما يأتي أبرز السفارات والمراسلات التي تبادلها الجانبين مع اقتباس لأبرز ما تناولته تلك (الكتب) حول مشاركة (المملكة اليمنية) في الجهاد، ولا بد من ذكر أن عدم تناولنا للمراسلات بين الأيوبيين وبني رسول هو بسبب توتر العلاقات بين القوتين لدرجة أن السلطان الكامل بن العادل كان يدعم التمردات ضد حكم بني رسول[٣]، بل وصلت القطيعة بين الطرفين إلى درجة أن السلطان نجم الدين أيوب بن الكامل أعرض عن

(١) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٢٧٧- ٢٧٨.
(٢) قُتل السلطان المنصور سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)؛ أما معركة عين جالوت فقد كانت سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م).
(٣) الخزرجي: العقود، ج١/ ص ١٣٩.

الفقيه بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة الحميري[١] لأنه قبل هدية من صاحب اليمن[٢]، ولعل ذلك هو السبب في عدم عثورنا على أية كتب أو سفارات متبادلة بين الأيوبيين وبني رسول، ولذلك سنقتصر فيما يأتي على ما قدمته لنا المصادر من مراسلات بين دولة المماليك في مصر والشام ودولة الرسوليين في اليمن.

**أ - السلطان المظفر سيف الدين قطز: (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م):**

انفرد القلقشندى بإيراد " . . .نسخة كتاب من ذلك (كذا)، كتب بها عن الملك المظفر قطز - وصاحب اليمن يومئذٍ المنصور - بالبشارة بهزيمة التتار. . ."[٣]، وقد ذكرنا سابقًا عدم اتفاق معاصرة السلطان المنصور لمعركة (عين جالوت)، فضلا عن أن أحد الألقاب المخاطب بها العاهل المرسل إليه هو (المنصوري)، وقد يعود ذلك إلى كون مصدرها مصدرًا سماعيًا، إذ يقول القلقشندي: " . . .وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس، ذكر أنه وجدها في بعض المجاميع فحفظها. . ."[٤]، وبما أنه ذكر أنها كانت موجهة للسلطان المنصور فوجب أن تكتب باسم المنصوري وليس المظفري - المرسل إليه الحقيقي، ولا أدل على حدوث ذلك الالتباس لدى الراوي من ذكره أن المعركة وقعت في شهر رجب، في حين تتفق المصادر

(١) بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة (ت٦٤٩هـ/ ١٢٥١م): فقيه شافعي رحل في صغره إلى العراق فسمع من علماء ذلك القطر، ثم استقر بالقاهرة وتولى الخطابة فيها وكان يجالس الملوك، توفي وله من العمر تسعون عاما، ودفن بالقرافة؛ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/ ص١٨٤.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص٢١.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٨٦.
(٤) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ٣٨٨.

أنها كانت في رمضان[١].

عمومًا فقد كانت هذه الكتب التي تحمل البشرى بالنصر وسيلة سياسية لإكساب المماليك المزيد من الاحترام في الأوساط الإسلامية، لا سيما بين الدول ذات الثقل السياسي والعسكري والاقتصادي في المنطقة، ولا يمنع كون هذه الرسالة خاصة بالنصر في (عين جالوت) أي نصر على المغول وليس الصليبيين، إلا أنه من الناحية الاستراتيجية يعد نصرًا مهمًا على الصليبيين الذين دخلوا في حلف مع المغول لتطويق المسلمين والقضاء عليهم، على الرغم من أن ذلك التحالف كان في بدايته غير فعال بسبب اعتداد المغول بقوتهم الضاربة التي لا تقهر، إلا أنه اكتسب شكلاً فعالاً وملموسًا في السنوات التالية من خلال تبادل السفارات بين الطرفين والتعاون العسكري بينها في أكثر من موضع[٢].

**ب - السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م - ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨م):**

في سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) تمكّن بيبرس من اجتياح سيس[٣] عاصمة مملكة أرمينية الصغرى، التي تمثل حلقة الوصل في التحالف الصليبي - المغولي، ومع أن المصادر لم تذكر إرساله البشرى بذلك إلى الأقطار الإسلامية - كما هي العادة - فإنها ذكرت أنه حين عودته إلى مصر استقبل

(١) ابن كثير: المصدر السابق: ج١٣/ ص٢٢٣؛ الذهبي: العبر، ج٣/ ص٢٨٨.
(٢) يوسف: العدوان الصليبي، ص٢٥٣- ٢٦٣؛ العريني: المغول، ص١٩٠، ١٩٤.
(٣) سيس (وتسمى سيسية): بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة، وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمني، ياقوت: المعجم، ج٣/ ص٢٩٧- ٢٩٨.

رسل صاحب اليمن المظفر يوسف حاملين معهم هدية عبارة عن فيل وحمار وحش وخيل وتحف كثيرة[١].

وقد اختلف حول الغرض من تلك السفارة، فيذكر ابن كثير أن المظفر يوسف أرسل إلى الظاهر بيبرس "...بالخضوع والانتماء إلى جانبه وأن يخطب له ببلاد اليمن... فأرسل إليه السلطان هدايا وخلعًا وسنجقًا وتقليدًا..."[٢]، ولا ندري لماذا يطلب المظفر تقليدًا من الظاهر بيبرس في حين أنه يملك تقليدًا أكثر قوة و شرعية من آخر خلفاء بني العباس في بغداد، ولم تذكر المصادر اليمنية أنه خطب للظاهر بيبرس في اليمن أو للخليفة العباسي في مصر، أما ابن تغري بردي فيذكر أن المظفر "...يطلب معاضدة الظاهر له وشرط له أن يخطب له ببلاده..."[٣]، وإذا حاولنا أن نصل إلى حقيقة العرض الذي حملته تلك السفارة إلى الظاهر بيبرس، وهو فيما يبدو من رواية ابن تغري بردي أنه عرض بإقامة حلف بين الدولتين لحماية المصالح المشتركة بينهما، وأنه نوقش خلال تلك السفارة وضع حل لعدد من القضايا التي أدت إلى توتر العلاقات بين الطرفين، مثل وضع اليمن السياسي بالنسبة إلى دولة المماليك وموقف الدولة الرسولية من إحياء الخلافة العباسية في القاهرة تحت رعاية المماليك، وقد يكون المظفر بما عرف عنه من دهاء وحنكة سياسية أراد أن يناورعبرعدم اعترافه بسلطان المماليك وخليفته العباسي إلى أن يحصل على مكسب سياسي يزيد من نفوذه في المنطقة لا أن يجعله تابعًا للسلطان المملوكي في مصر.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٢٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٥٧.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٢٧.

وأما بالنسبة إلى المصادر اليمنية فلم تذكر شيئًا عن تلك السفارة التي أرسلها المظفر، ولكن الخزرجي يذكر أنه في سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م) وصل رسول صاحب مصر إلى اليمن بالمكاتبات والهدايا، وأن ذلك الرسول توفي آخر تلك السنة[١]، وعلى الرغم من عدم وضوح نتيجة تلك المراسلات فإنه يبدو أن العلاقات بين الجانبين استقرت بعض الشيء، ويذكر ابن تغري بردي أن البشرى بانتصار المسلمين وفتحهم لصفد (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)، وأنطاكية (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)، وحصن الأكراد وحصن ابن عكابر (٦٦٩هـ/ ١٢٧١)، كلها قد أرسلت إلى الأقطار كافة[٢]، وقد أورد القلقشندي كتابًا من السلطان المظفر يهنئه فيه بفتح صافيتا وحصن الأكراد، وهما من فتوحات السلطان الظاهر بيبرس كما بينا، وبذلك يكون الكتاب الذي أورده القلقشندي موجهًا من الظاهر بيبرس إلى السلطان المظفر، لا من السلطان قلاوون، ويكشف مضمون ذلك الكتاب عن العلاقات المتينة بين العاهلين، والدور البارز للسلطان المظفر في دعم المجاهدين، إذ أنه "...لا خلا موقف جهاد من اسمه ولا مصرف أجر من قسمه..."[٣]، الأمر الذي يؤكد فعالية الموقف السياسي لليمن، وردًّا على تلك البشرى بفتح حصن الأكراد وحصن ابن عكار أرسل المظفر وفدًا قدم التهانئ للظاهر بيبرس باسم السلطان المظفر، وكذلك هدايا الأخير إلى سلطان مصر[٤].

---

(١) الخزرجي: العسجد، ص٢٤٢- ٢٤٣؛ العقود: ج١/ ص١٦٩.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٢٥، ١٢٩، ١٣٦-١٣٧.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٧٩ .
(٤) عاشور (سعيد عبدالفتاح): العصر المماليكي في مصر والشام، د.م، ط١- ١٩٦٥م، ص٢٣؛ الحداد (محمد حمزة إسماعيل): السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط٢- ١٩٩٨م، ص١٠٣.

### ج- السلطان المنصور قلاوون (٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م - ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م):

دخل الجهاد ضد الصليبيين في عهد السلطان قلاوون مرحلة حاسمة بعد أن تمكن الظاهر بيبرس من توجيه ضربات موجعة إلى الصليبيين وحلفائهم من المغول والأرمن، فتمكن من سحق القوة الحربية لمملكة أرمينية الصغرى، وتصدى بقوة لهجمات المغول المدمرة حتى أرهقهم، فتمهدت الطريق أمام السلطان المنصور قلاوون للقضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام نهائيًا، مواصلاً سياسة سلفه الحربية، وقد تطورت في عهده العلاقة بين دولة المماليك ودولة بني رسول، إذ استقبل في سنة (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) وفدًا أرسله السلطان المظفر مع مجموعة من الهدايا القيمة ويحملون طلب سلطانهم بأن تسود علاقة الصداقة بين المملكتين[١]، وقد تزامنت تلك الوفادة مع انتصار المماليك على المغول - حلفاء الصليبيين - في مروج حمص في وقت متقدم من العام نفسه[٢]، وتوالت المراسلات بين الجانبين في مناسبات متعددة، ففي سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٣م) اجتاحت قوات المماليك مملكة أرمينية الصغرى محدثةً في مدنها خرابًا ودمارًا موازيًا لما فعله الظاهر بيبرس من قبل[٣]، وأرسلت البشائر بذلك النصر إلى سائر الأقطار، ومنها اليمن، فأرسل السلطان المظفر كتاب تهنئة إلى السلطان المنصور قلاوون، ولحسن الحظ فإن الكتاب الذي أرسله المنصور قلاوون إلى المظفر يوسف ردًا على التهنئة تضمن أهم ما ورد في الكتابين السابقين، إذ ورد بأنه - المنصور قلاوون - طلب في الكتاب الذي أرسله بالبشرى دعمًا ماليًا من

(١) المقريزي: السلوك، ج٢/ ص٢٨١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٩٩- ٣٠٠؛ الحداد: المرجع نفسه، ص٨٩.
(٣) ابن خلدون: التاريخ، ج٥/ ص٤٥٨.

اليمن " . . .وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية. . ."[١].

ومن جهة المظفر يوسف فقد تضمن الكتاب الذي أرسله بالتهنئة اعتذارًا عن تأخره في إرسال الدعم للمجاهدين وذلك لانشغاله بالقضاء على تمرد أحد نواب أبيه، وكان قد تحصن في إحدى القلاع إلى أن أظهره الله عليه وأرسل البشرى بذلك إلى المنصور قلاوون[٢]، وربما كان التمرد الذي عناه المظفر هو تمرد الأمير صارم الدين داوود بن الإمام المنصور عبدالله بن حمزة، وانضمام المماليك الأسدية[٣] إليه بعد وفاة الأمير علم الدين سنجر الشعبي المتولي أمر صنعاء وما يليها سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)[٤].

وقد أبدى السلطان قلاوون استياءه من رد السلطان المظفر، وذلك بتقليله من حجم النصر الذي حققه المظفر على ذلك التمرد مقارنة بالمعارك التي تخوضها جيوش المماليك ضد أعداء الأمة، كما اتهم بني رسول باكتناز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله ونصرة إخوانهم المجاهدين، مشيرًا إلى عظيم ثرواتهم بقوله: " . . .وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربى عن الحصر والحد ويزيد عن الإحصاء والعد؛ لا ينفق منها شيء في الجهاد. . ."[٥].

---

(١) القلقشندي: المصدر السابق: ج٧/ ص٣٧٦.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٧٠- ٣٧١.
(٣) المماليك الأسدية: نسبة إلى الأمير أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ابن عم السلطان المظفر.
(٤) الخزرجي: العسجد، ص٢٦٠؛ العقود، ج١/ ص٢٢٧- ٢٢٨؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٣١.
(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ج٧/ ص٣٧٥- ٣٧٦.

وعلى رغم هذا الرد الجارح من السلطان قلاوون فإن العلاقات السياسية بين المملكتين ظلت مستمرة ولا سيما حول موضوع الجهاد، ففي رد السلطان قلاوون على كتاب التعزية الواصل إليه من السلطان المظفر بوفاة ولي عهد السلطان قلاوون الملك الصالح علاء الدين علي سنة (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، أشار السلطان قلاوون إلى عزمه مواصلة الجهاد رغم ما حل به منوهًا بضرورة عدم تراخي أي طرف في تقديم ما يجب عليه في سبيل نصرة المجاهدين وتحرير الأراضي المحتلة(١)، وقد توالت الفتوحات في عهد قلاوون، ففي سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) استرد المسلمون حصن المرقب ذي الأهمية الاستراتيجية، وأرسلت البشائر بذلك إلى سائر الأقطار(٢).

وفي سنة (٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) تمكنت قوات المنصور قلاوون من استرداد مدينة طرابلس، وكان نصرًا عظيمًا أرسلت البشائر به، ومما جاء في البشارة المرسلة إلى اليمن "بسم الله الرحمن الرحيم أعز الله نصر المقام العالي السلطان الملكي المظفر الشمسي... وكانت الخلفاء والملوك في ذلك الوقت [وقت الفتح] ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مكب على مجلس أنسه، يرى السلامة غنيمة..."(٣)، كما أورد القلقشندي كتابًا آخر بالبشارة بفتح طرابلس أرسل على لسان ولي عهد السلطان قلاوون الملك الأشرف خليل إلى السلطان المظفر، ولم يتضمن أية أمور غير البشارة(٤).

لقد كان للمراسلات بين السلطان قلاوون والسلطان المظفر أثر بالغ في

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص٢٦٧- ٢٦٨.
(٢) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٦٧- ٢٦٨.
(٣) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٧٤.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٩٢- ٣٩٦.

تفعيل دور أهل اليمن في دعم الجهاد ضد الصليبيين، فالمنصور قلاوون لم يكتفِ بطلب الأموال، بل أراد أن "...يُبلغ من كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يطيقه سوله... اللهم إلا أن تلبى دعوة الجهاد من تلك الجهة بألسنة النفير، وتعبئ صفوف الجلاد في الجواري التي تكاد بأجنحة القلوع تطير، أو تنوب عنها خزائن الأموال التي تنفق في سبيل الله تعالى، أو تقوم مقامها النفقات التي تصرف إلى جنود الله..."(١).

ويبدو أن تلك المراسلات قد آتت أُكُلها، إذ صار لليمن دور بارز في دعم الجهاد ضد الصليبيين، الذي ظهر جليًا في مخاطبة السلطان قلاوون السلطان المظفر بأنه "...أحق من هنئ بهذا الفتح..."(٢).

**ثالثًا- دور اليمن في عزل الحبشة عن القوى الصليبية:**

أدى احتدام الصدام العسكري بين المسلمين والصليبيين إلى بحث كل طرف عن أية وسيلة تضمن له التفوق على الطرف الآخر، فمن ذلك محاولة الصليبيين نقل ميدان المعركة إلى البحر الأحمر وشغل المسلمين بحماية مقدساتهم المطلة على ذلك البحر، فضلا عن تهديدهم حركة الملاحة التجارية في ذلك الشريان الاقتصادي الذي يغذي مصر التي شكل استيلاء نور الدين زنكي عليها ضربة قاصمة لمملكة القدس اللاتينية، ولكن من الناحية العملية كان ذلك مستحيلاً من دون أن يكون لهم حليف في جنوب البحر الأحمر يساعدهم في تحقيق خطتهم تلك، وقد أثبتت تجربة أرناط الفاشلة صحة ذلك، وكانت كل من مملكتي النوبة والحبشة أفضل الخيارات

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٧٤- ٣٧٧.
(٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص٣٨٢.

المتاحة أمام الصليبيين، ولكن شدة وطأة الهجمات الأيوبية والمملوكية على النوبة دفع بالصليبيين إلى التركيز على الحبشة.

**١- أهمية التحالف مع الحبشة بالنسبة إلى الصليبيين:**

كانت معرفة الصليبيين عن الحبشة تلك المملكة النصرانية الإفريقية تكاد تكون معدومة؛ نظرًا لوقوعها في مجاهل ما وراء الديار المصرية، ولكون البحر الأحمر ما زال بحرًا إسلاميًا مغلقًا في وجه أوروبا، إلا أنه مع مضي الوقت تزايدت معرفة هؤلاء الغزاة الصليبيين بالمنطقة والكيانات السياسية فيها وطبيعة علاقة كل قوة بأخرى، وعلى الرغم من تحمس الصليبيين في الشام وأوروبا إلى شن حرب كبرى على المسلمين للقضاء عليهم وانتزاع أقاليم الشرق الغنية كافة منهم؛ فإن ذلك كان متعذرًا بالاعتماد على الدعم والمساعدات العسكرية الأوروبية فقط، فكان من الضروري البحث عن حليف له وزنه السياسي والعسكري في المنطقة لإطباق طرفي كماشة على أقاليم الشرق الإسلامية، ويبدو أن كراهية الصليبيين المفرطة للمسلمين من قبل كانت ذا أثر إيجابي، إذ جعلهم يرفضون عرض الفاطميين إقامة حلف بين الجانبين لحرب السلاجقة، الأمر الذي لو تم لشكل قاصمة الظهر للقوة الحربية للأمة الإسلامية، وعندما يفرغون من السلاجقة والخلافة العباسية ينصرفون إلى القضاء على الفاطميين.

وهكذا صار لزامًا على الصليبيين البحث عن حليف من أبناء ملتهم، ويتحدث رنسيمان عن هذا التوجه عند الصليبيين بقوله: " . . .وانتعشت أيضًا الآمال في التماس حليف من الشرق الأقصى، إذ حدث منذ سنة (١١٥٠م) أن أخذ غرب أوروبا يتداول رسالة جرى الزعم أن الزعيم الكبير بريستر

يوحنا[١] كتبها إلى الإمبراطور مانويل، ومع أنه يكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة من تزييف أسقف ألماني فإن روايتها عن ثروة الملك الكاهن [بريستر يوحنا] وورعه بلغت من السلامة ما لا يدعو إلى إغفالها وإنكارها..."[٢].

وبناءً على تلك الرغبة الملحة لدى الصليبيين في غرب أوروبا في البحث عن حليف في الشرق ليكون نصيرًا لإخوانهم في مملكة بيت المقدس وحربًا معهم على المسلمين؛ أرسلت روما أحد رجال الدين ممن برع في أصول الدين والتعاون الكنسي ويدعى فيليب، ومعه رسالة إلى ذلك الزعيم الشرقي الذي لم يعرفوا شيئًا عن موقع مملكته، فبدأ فيليب رحلة بحث عن تلك المملكة حتى انتهى به المطاف في الحبشة وانقطعت أخباره[٣].

وهكذا فإن مشاكل الصليبيين ومشاريعهم التوسعية - لا سيما ما يتعلق بمصر - فضلا عن جهل أوروبا الكبير بأوضاع البحار العربية الجنوبية، حيث كانت معلوماتهم مشوشة ويعوزها كثير من الدقة، فاقتصرت معرفتهم حول ما تتناقله الروايات عن وجود مملكة مسيحية في إفريقيا تتولى مهمة الكفاح ضد التوسع الإسلامي في تلك المنطقة[٤]، كل ذلك جعل من

(١) بريستر يوحنا: أسطورة انتشرت في الغرب الأوروبي خلال مدة الحروب الصليبية عن ملك أو حاكم في الشرق الأقصى اعتنق النصرانية، وكرس مملكته للحرب في سبيل المسيح، وقد اختلف حول شخصيته من قائل بأنه أمير فارسي من النساطرة، وآخر بأنه طغرل خان قبيلة الكرايث التركية، وهناك من رأى في إمبراطور الحبشة ذلك البطل المسيحي؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص٣٩٧-٣٩٨، ج٢/ قسم٢/ ص٦٨٢، ج٣/ قسم٢/ ص٤١٥.
(٢) رنسيمان: المرجع نفسه، ج٢/ قسم٢/ ص٦٨١- ٦٨٢.
(٣) رنسيمان: المرجع نفسه، ج٢/ قسم٢/ ص٦٨٢.
(٤) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٨٠.

الصعب على الصليبيين إقامة اتصال مباشر مع مملكة الحبشة لأجل إقامة حلف صليبي مشترك بين الجانبين على الأقل في المرحلة المبكرة من الحروب الصليبية، ومع ذلك فإن محاولة أرناط البحرية تعد محاولة مبكرة للصليبيين التعرف على مجاهل ذلك البحر وشواطئه في مسعى للوصول إلى مملكة الحبشة، الأمر الذي فطنت له السلطات الأيوبية في مصر فأحبطت المحاولة[١].

ظلت العلاقات غير واضحة بين مملكة الحبشة والصليبيين طوال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، إلا أنه في القرن التالي تحدث المؤرخون عن وجود جالية حبشية كبيرة مقيمة في بيت المقدس، ولهم دير كبير فيها، وأن الهدايا والهبات لم تنقطع من ملوك الحبشة إليهم، فضلا عن التماسهم من سلاطين المماليك رعاية هؤلاء الرهبان[٢]، وبذلك تكون الحبشة قد خرجت عن عزلتها، وبدأت اتصالاتها بالعالم الخارجي تتوسع، وعلى الرغم من أن مدينة القدس كانت آنذاك بيد المسلمين فإن ذلك لا يمنع أن يكون الرهبان الأحباش المقيمين بها حلقة وصل بين الصليبيين المتمركزين في مدن الساحل وبين ملوك الحبشة.

لم يتجاوز نشاط مملكة الحبشة السياسي خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مجرد المراسلات بين ملوكهم من أسرة زاقوي (التي حكمت من منتصف القرن العاشر الميلادي وحتى سنة ١٢٧٠م) وسلاطين

(١) عبدالعال: الأيوبيون، ص١١٧؛ جرادات: المرجع السابق، ص٧٦.
(٢) عاشور: العصر المماليكي، ص٢٤٥- ٢٤٦، ٢٤٨؛ الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص٩٨.

المماليك في مصر[١]، ولم يتم تفعيل موقف الحبشة السياسي ضد المسلمين إلا في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عندما نجحت محاولات البابوية لخلق اتصال مع ملوك الحبشة حول التحالف ضد المسلمين، فاتخذ ملوك الحبشة موقفًا حربيًا معاديًا لسلطنة المماليك مثل محاولة ملك الحبشة كبس دولة المماليك من الجنوب في اثناء غزو ملك قبرص للإسكندرية سنة (٧٦٤هـ/ ١٣٦٥م)[٢]، وكذلك دعوة الملك إسحاق الأول ملك الحبشة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي لملوك أوروبا لشن حرب صليبية شاملة ضد المماليك، وقد استمرت تلك الحماسة الحربية المعادية للمسلمين حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إثر تحقق الاتصال المباشر بين أوروبا والحبشة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ومن ذلك أن الأحباش قدموا مشروعًا بتحويل مجرى النيل من منابعه وذلك لتجويع مصر والقضاء على القوة الحربية للمماليك[٣].

وفيما يأتي سنستعرض الدور الذي قامت به اليمن في سبيل عزل الحبشة عن بقية القوى الصليبية في بلاد الشام ومنع أي تفاعل سياسي أو عسكري بين الجانبين.

**٢- سياسة اليمن ودورها في عزل الحبشة عن الصليبيين:**

تشرف كل من اليمن والحبشة على أحد الشاطئين الجنوبيين للبحر الأحمر، الأمر الذي أدى إلى حتمية قيام علاقة بين الجانبين على أساس

(١) الحداد: المرجع السابق، ص٨٩.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص٩٥٥- ٩٥٦.
(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج٢/ ص٩٥٦- ٩٥٩.

سعي كل منهما في سبيل تحقيق السيادة على المياه الجنوبية للبحر الأحمر، والتحكم بالتجارة الشرقية، الأمر الذي ينسحب بالتالي على الثقل السياسي لتلك القوة وعلاقتها بالقوى السياسية الأخرى في المنطقة، وقد تطورت العلاقات بين الشاطئين الآسيوي والإفريقي عبر التاريخ منذ أن بدأت هجرات أبناء جنوب الجزيرة إلى الساحل الإفريقي مع مطلع (الألف الأول قبل الميلاد) واختلاطهم بالسكان المحليين، فبنوا معًا مدنية تلك البلاد، وبلغ من قوة تلك الروابط بين الشاطئين أن صارت الألقاب الملكية في الحبشة تضم أسماء الحواضر في جنوب الجزيرة العربية(١).

ومع ظهور الإسلام وانتشاره في الأرض حتى تم فتح بلاد الشام ومصر وإنهاء الوجود البيزنطي في المنطقة؛ أخذت مملكة الحبشة في الانكفاء على نفسها لا سيما أنها أصبحت جاورة إمبراطورية إسلامية بسطت سيطرتها على البحر الأحمر، وتصدت بقوة لأية محاولة من الأحباش للإخلال بأمن ذلك البحر والملاحة فيه كما بينا في موضع سابق.

وقد استمرت العلاقات بين الدولة الإسلامية والأحباش هادئة ومستقرة، وتطورت الحركة التجارية بين الجانبين، ولا سيما عبر اليمن البوابة الجنوبية لديار الإسلام، فاختلف التجار اليمنيون إلى المدن الحبشية يطلبون التجارة ونشر الإسلام، بل وصل الأمر إلى أن ملوك الحبشة كانت تخطب ود أمراء الدول اليمنية وتهاديهم(٢).

ومع مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت اليمن

(١) الشيبة: دراسات، ص١٦٨- ١٨٨؛ الجرو: التاريخ السياسي، ص٢٣٩- ٢٤٠.
(٢) عمارة: المفيد، ص٦٥.

تعيش مرحلة من التجزئة السياسية اقتصرت فيها العلاقات اليمنية - الحبشية على التبادل التجاري، لا سيما في ظل وجود دولة بني نجاح الأحباش في تهامة، الذين لم تنقطع صلتهم بوطنهم الأم في سبيل استجلاب المزيد من المقاتلين حملة الحراب والعبيد والوصفان والجواري، حتى إن بعض المؤرخين سجل لأي القبائل الحبشية ينتسب رجالات تلك الدولة وقادتها[١].

وفي الشمال حيث ميدان الجهاد ضد الصليبيين شهدت المنطقة سباقًا محمومًا بين الصليبيين والزنكيين في سبيل تحقيق المزيد من المكاسب الاستراتيجية لأجل ضرب الطرف الآخر وإضعافه، تمكن خلاله نور الدين محمود من تطويق الصليبيين عندما استولى على مصر وأسقط الخلافة الفاطمية، واتبع ذلك بدعم نفوذه في البحر الأحمر بعدما تمكن نائبه على مصر صلاح الدين من استرداد أيلة من الصليبيين، وضرب مملكة النوبة، وأخيرًا استيلاء قوات توران شاه على اليمن، وبذلك صار البحر الأحمر تحت الرقابة الصارمة من قبل الأيوبيين في مصر واليمن تحسبًا لتسلل أية سفن صليبية قد تحاول إحداث الفوضى في البحر الأحمر، أو الاتصال بمملكة الحبشة.

ولكن بقاء الحبشة في عزلتها لم يكن ليستمر طويلاً، فالكنيسة الحبشية هي جزء من الكنيسة المرقصية بالإسكندرية، وجرى التقليد بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر[٢]، وعلى الرغم من انقطاع التواصل بين مصر

(١) عمارة: المصدر السابق، ص١٦٨، ١٧٢؛ الخزرجي: العسجد، ص١٠٤، ١١٨، ١٢٤.

(٢) أقّر مجمع نبقية المسكوني المنعقد في سنة ٣٢٥م تبعية كنيسة الحبشة لبطريركية الإسكندرية، ومنذ ذلك التاريخ أصبح بطاركة الإسكندرية يولون أساقفة الحبشة إلى سنة (١٩٤٦م)؛ انظر: الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ص٩٧٠ هامش رقم (٤).

والحبشة خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة في الحبشة حول العرش، مما أدى إلى اختلال الأمن هناك[١]، الأمر الذي أثار المخاوف على المسلمين في تلك المناطق، فقد شكا التجار الكارمية إلى الظاهر بيبرس من اعتداءات حاكمي كل من جزيرة دهلك وميناء سواكن[٢]، اللذين كانا يستحوذان على أموال من مات ببلادهما من التجار، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن أرسل موفدًا من قبله ينكر عليهما أفعالهما وذلك سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)[٣].

وأما بالنسبة إلى ملك الحبشة الذي تتبعه جزيرة دهلك فعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئًا عن الإجراء الذي تم اتخاذه نحوه، فإن الرسالة التي بعث بها إلى الظاهر بيبرس سنة (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) أفادت برعاية ملك الحبشة للمسلمين في بلاده[٤]. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا يُقْدم ملك الحبشة على تقديم هذه المبادرة وحرصه على طلب رضا الظاهر بيبرس مع علمه باستحالة إرسال الأخير حملة إلى الحبشة؟

إن التعليل الذي قدمه كل من سعيد عاشور وحمزة الحداد بأن السبب

---

(١) عاشور: العصر المماليكي، ص٢٤٦؛ الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص٩٨-٩٩.

(٢) سواكن: بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب، ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جدة، وأهلها بجاه سود نصارى؛ انظر: ياقوت، المعجم، ج٣/ ص٢٧٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١/ قسم الثاني/ ص٥٠٦؛ سالم: البحر الأحمر، ص٩٠-٩١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨/ ص١٢٤.

وهو حاجة الأحباش لإبقاء علاقاتهم طيبة مع حكام مصر لئلا يلجأ هؤلاء إلى منع تنصيب المطارنة لكنيسة الحبشة[١]، هو على ما يبدو تعليل مناسب من الناحية المظهرية من حيث تبعية الكنيسة الحبشية لبطريرك الإسكندرية وحاجتهم المستمرة إلى المطارنة الأقباط، إلا أنه غير مناسب من حيث الظروف التي أرسل فيها ذلك الكتاب والتطورات السياسية في المنطقة، حيث إنه من الضروري الإشارة إلى أن كتاب ملك الحبشة وصل إلى الظاهر بيبرس ضمن كتاب أرسله السلطان المظفر يوسف الرسولي إلى القاهرة، ولم يكن وصول كتاب ملك الحبشة عن طريق سلطان اليمن مجرد شفاعة للأخير ووساطة بين العاهلين المملوكي والحبشي كما ذكر الحداد[٢].

حيث إن ذلك الكتاب يعد دليلاً واضحًا وصريحًا على الدور الذي قامت به اليمن للضغط على الحبشة في سبيل الحفاظ على أمن واستقرار المنطقة بناءً على المصلحة المشتركة لجميع الأطراف، فاليمن بوصفها الحليف الاستراتيجي للمماليك في جنوب البحر الأحمر كان من الواجب عليها القيام بدورها لدعم نفوذها في المنطقة، الذي يتيح لها بالتالي استخدام ذلك النفوذ لصالح حماية مصالحها ومصالح حلفائها، فالسلطان المظفر الذي اشتهر باهتمامه بقضايا إخوانه المسلمين في كل مكان وحل مشاكلهم حتى إنه تدخل لدى إمبراطور الصين بالوسائل كافة الدبلوماسية والهدايا حتى جعله يعدل عن قراره بحظر الختان على رعاياه من المسلمين[٣]؛ كان من المستبعد ألا يتدخل

(١) عاشور: العصر المماليكي، ص٢٤٥-٢٤٧؛ الحداد: المصدر السابق، ص٩٨-٩٩.
(٢) الحداد: المصدرنفسه، ٩٨.
(٣) الخزرجي: العسجد، ص٢٧٣؛ العقود، ج١/ ص٢٧٩.

مستخدمًا نفوذه عند ملك الحبشة، ذلك النفوذ الذي جعل منه الحاكم المسلم الوحيد الذي تقام له الخطبة بين مسلمي الحبشة[١]، وهو أمر لم تكن السلطات الحبشية لتسمح به لولا إدراكها قوة الدولة الرسولية وثقلها السياسي والعسكري في المنطقة.

ولذلك جاء في كتاب ملك الحبشة إلى الظاهر بيبرس "...وأقل المماليك [ملك الحبشة] يسيّر إلى نواب مولانا الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيّره إلى نواب مولانا السلطان [بيبرس]..."[٢]، وفي ذلك إشارة واضحة إلى الولاء الذي يكنه ملك الحبشة للسلطان المظفر الذي حرص على أن يتم وصول ذلك الكتاب بواسطته إظهارًا لدوره في كبح جماح الحبشة من خلال ما اشتهر به من حنكة سياسية، وفي الوقت نفسه احتواء مطالبها ضمن المصالح المشتركة بين الدول المطلة على البحر الأحمر كافة.

(١) الملك الأفضل (الرسولي العباس بن علي بن داوود بن يوسف): العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية، تح: عبدالواحد عبدالله أحمد الخامري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٦٩٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨/ ص١٢٣.